الناقة العربية

محمد عبد الحليم عبد الله

النافذة الغربية

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

کل شئ علی ما یرام

رأيت الذين تجتذبهم الأخطاء إليها وهم راغمـون يحرصون كل الحرص على أن يجنبوها سواهم من الأحباب ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا » .

وكانت هذه هى قصتى مع أبوى ...

قصتى التى جعلت أستعيد أحداثها حلقة حلقة حتى قطعها على انفجار أعقبته طلقات مدافع رجفت بها الأرض وقعقعت لها السماء ثم تأهبت الإسكندرية بعدها لتقاسى ليلة من ليالى الهول فى تلكم الحرب الأخيرة .

***

أما نقطة البدء فى القصة فإنها ترجع إلى خمسة عشر عاما . ليلة أرقنى شىء لست أذكر كنهه . وكنت إذ ذاك غلاما فى العاشرة لأبوين ريفيين يجرى بهما مركب الفقر فى خضم الوجود فلا تكاد شبكتهمـا تخرج بما يحفظ علينا الحياة .

ووقعت عيناى اللتان أثقلهما النوم على منظر جاشت له نفسى فى هذه الليلة .

كان هناك على قبة الفرن فى الحجرة الخاوية مصباح بلا زجاجة مخنوق الأنفاس كأنه يحتضر . يجثم بينه وبين الحائط وعـاء مـن النحـاس مهبب الظاهر وكوز من الصفيح ، ويرتمى ظلهما على الحائط القديم كالحا قبيحا يرتجف بارتجاف الذبالة .

وحصير مفروش .. افترشه صبيان كنت أحدهما . ومن فوقنا غطاء غليظ من صوف الغنم ذو خطوط مستطيلة تخرق فى عدة مواضع وكانت رجل أخى النائم خارجة من أحد هذه الخروق . وحمالة للثياب هى حبل شد إلى أحد الأركان عليها بعض خلقان قديمة ، وأشياء أخرى لست أذكرها الآن .. وشيء أخير لم أنسه لأنه أهم من كل ما رأيته .. ذلك هو شبح أمى !!

كانت متربعة فى جلستها كالتى فرغت من الصلاة رافعة وجهها إلى السماء وكفاها مبسوطتان تدعو وتبتهل . وكان دعاؤها متهدجا غامضا معظمه همس لكنه يبعث فى القلب رهبة ومخاوف .

ولعل أقوى سبب لما أحسسته من دعائها أننى تلفت فرأيت مكان أبى من الحجرة خاليا وعرفت أن الليل قد تقدم نحو الصباح من تصايح الديكة على سطحنا وسطوح الجيران . وكان دعاؤها ينقطع بين الحين والحين حتى إذا ما استأنفته بدا أنه مخنوق بالدمع ومنديل رأسها متأخر إلى الوراء ، حاسر متراجع ، فهو على وشك السقوط لولا أن الضفائر ممسكة به فبدت مكشوفة الرأس كأنها جزعة أو كأنها موشكة على الصراخ .

وفى دعائها عبارة تتردد كثيرا كانت تطلب بها من الله الستر . قلت بينى وبين نفسى — وكنت أحب أمى — ترى ماذا أصابك يا أماه ؟!

ثم كفت برهة عن الهمس ثم خرجت إلى ساحة الدار كأنما لتفتش عن شيء فأتاحت لى فتحة الباب أن أسمع هواء الخريف الأرعن المتسابق وهو يعابث أعواد الحطب على أعالى الجدران .

وعادت أمى بعد ذلك واستأنفت ما كانت فيه . وعدت أنا إلى التأمل والاستغراق والتفكير فى الموقف ومراقبة الظلال الداكنة على الجدار القديم وهى تتراقص بتراقص الذبالة ، وأنظر إلى رجل أخى الخارجة من الغطاء المخروق فأكتم ضحكة تراودنى رأيتها غير منسجمة مع كآبة الواقع .

وسمعت طرقة على الباب الخارجى أيقنت معها أن الموقف فى طريقه إلى الوضوح وأن الغمة قاربت أن تنكشف . وخرجت أمى تتعثر فى أذيالها الطويلة لتفتح ، وانفرج باب القاعة مرة أخرى فتناهى إلى سمعى أزيز الحطب ثم دخل الشبحان من باب القاعة .. ثم أغلق الباب .. ثم ارتجت الأرض من رمى شىء ثقيل كأنه حمل . ثم سمعت أنفاس الرجل مضطربة مبهورة .. ولم أستطع أن أتبين كل ما حولى بتفاصيله لأن المصباح انطفأ عند دخول الزوجين وانفتاح الباب فتحة كاملة سمحت لهواء الليل أن يتدفق نحو الداخل .

وكانت أمى تفتش عن علبة الثقاب فلم تهتد إلى مكانها ، فسمعتها تهمس لأبى قائلة : لا داعى لهذا العناء .. ما عدنا بحاجة إلى النور .. هل سننظم عقدا ؟!. لا . ولا نحن سنفرز ذهبا ولا فضة !! ولم يرد عليها أبى بكلمة لأن أنفاسه لم تعد سيرتها الأولى وسعل مرتين أو ثلاثا قبل أن يطمئن ويخيم علينا سكون كأنه قطعة من الأبدية . وصاح ديك فى الخارج ومد صيحته فى تأنق وإصرار كأنما يؤكد للناس أنه رأى وجه النهار فسمعت عندئذ أبى يتنهد ويقول :

— الحمد لله ، وصلنا فى الوقت المناسب .

قالت أمى :

ـــ وهل وجعك ظهرك ؟

فأجاب :

ـــ قليلا بالنسبة لثقل الغرارة .. لم أكن آمل أن أعود بهذه السرعة لأن الروماتيزم قسا علىّ فى الشهر الأخير .

قالت أمى :

ـــ لم أفتر لحظة واحدة منذ خروجك عن أن أطلب من الله الستر ، وأحمد الله ، فقد استجاب .

قال أبى وهو يغالب الضحك :

ـــ شىء جميل . هذا هو نفس ما فعلته فى الحقل وأنا أخلع (كيزان) الذرة من الأعواد لأضعها فى الغرارة . كنت أطلب من الله الستر أولا والعفو ثانيا . غير أنى كنت أخشى شيئا واحدا وأنا أطلب الستر ، وذلك هو أن يكون صاحب الحقل قد طلب من الله الطلب نفسه وأن يكون الله قد استجاب فتقع الكارثة وأضبط متلبسا بجريمة السرقة .

ثم شاع فى جو الغرفة تنهد ومصمصة تدل على الأسف والاضطرار .

وأخذت الأمور بعد ذلك تتضح أمام بصيرتى وأنا مستلق على ظهرى تحت الغطاء القديم فرجعت إلى المسألة من أولها :

إن أبى عاجز منذ شهرين عن أن يحمل الفأس ، لذلك فإن أحدا من الناس لا يستدعيه ليعمل فى حقله بالأجر ، الروماتيزم المزمن مسيطر على ظهره .. فى موضع الحزام تماما ، فأقعده عن الكسب . ولما كانت البطون لا تعترف بعجز الأيدى عن تحصيل القوت فلا تكف عن الطلب

فإن الرجل لجأ آخر الأمر إلى أن يسطو على حقل غيره فى ظلمة الليل . ولم يستطع الروماتيزم أن يقعده عن حمل غرارة ثقيلة والسير بها مسافة طويلة . قلت بينى وبين نفسى : كان أبى يسرق .. أجل كان يسرق .. مع أن السرقة (عيب) بدليل أن شعبان والد زميلى مبارك سجن لأنه سرق ، وكنا نعير ابنه به إذا ما شرس علينا أو تكبر أو اعتدى .. ثم .. ثم لفنى النوم كما يلف بقية الأحياء .

* * *

وفى ضحا اليوم التالى رأيت أمى تقشر الذرة بوجه باسر وأعصاب هائجة . كانت كأنها تجهز ميتا لا تجهز طعاما . وكنت أدنو منها وأنظر فى عينيها فلا أرى فيهما إلا نقمة وثورة وتوقعا لمكروه . على أن ذلك كله لم يمنعنا عن الطحن والخبز وأكل الحرام لأن البطون لا تعترف بعجز الأيدى كما قلت لك .

و لم أستيقظ فى الليل مرة أخرى ولكننى رأيت فى النهار ذرة تقشر فأيقنت أن أبى غاود السطو لأنه لا يزال عاجزا عن حمل الفأس و لم يستدعه أحد ، فمن أين تأتينا النقود ؟! وأخى صغير وأنا لا أساعد أبى لأننى فى المدرسة ويتمنى أبى أن أحفظ القرآن .

وتشاجرت مع مبارك بن شعبان ليلة من الليالى فضربنى لأنه أقوى منى ثم فر إلى دارهم حتى لا يدركه الثأر ، فدخلت على أبوى صاخبا باكيا فلما سألانى ما خطبى قلت لهم : إن ابن « الحرامى » ضربنى وجرى ! فأحسست أن أبى يسترضينى بالنيابة عنه كأنما يريد أن ينهى الموضوع . ولكن ثورتى كانت لا تزال حادة مشبوبة فقلت صارخا :

ـــ أليس أبوه لصا .. ألم يسرق خروف على المنواتى .. له يوم !

ولطمتنى أمى على خدى فحملقت مستغربا ، لكننى أفـقت ! وسرعان ما ذكرت أن دارنا من زجاج وإن غاب ذلك عنى . ثم ذكرت ليلة الأرق وما حدث فيها فأمسكت أنفاسى وكظمت غيظا يخالطه خزى حتى سمعت أبى يقول وهو واضع كفه على ظهره :

ـــ لا تعير أحدا يا بنى .. فربما عيرت معذورا .

لكن الحوادث شاءت أن تلقى على درسا جديدا فلقد التقيت أنا ومبارك بن شعبان فى ملعب مع الصبيان بعد أسبوع كامل فما وقعت عيناه على حتى ابتدرنى قائلا :

ـــ أهلا بابن أبو غرارة .

وضحك الصبيان وفررت أنا أجرى إلى الدار .

أما مغزى ذلك فإن أبى ضبط متلبسا بالسرقة وكان منظره فى تلك الليلة يثير الضحك والدموع . فقد أبى صاحب الحقل إلا أن يسوقه إلى الخفر وهو يحمل المسروق فرأى الناس رجلا متألما خزيان باكيا يمسك الغرارة بيد ويمسك موضع الألم من ظهره باليد الأخرى ويتلقى اللطمات والركلات والشتمات بوجه صامت وقلب صابر .

وقد رأيته أنا وأمى وهم يستجوبونه . وكان الباشجاويش المحقق يكب على المحضر برهة ليكتب جوابا ثم يرفع إليه وجهه من جديد ، فظا غليظا يستوى فيه شاربان قويان بدوا كأنهما قطعة من وجهه . وكان أبى يجيب مرتجف الأوصال . ولست أنسى قوله يومئذ للمحقق « أعمل إيه .. كنا جائعين » ثم نظر خلفه حيث كنت أنا وأمى على مقربة منه

وخيل إلى أن معداتنا نحن الثلاثة همت بأن تنطق شاهدة بالصدق .
وكنت أسأل نفسى بين لحظة وأخرى : ألم يشعر هذا الباشجاويش بالجوع مرة فى عمره .. لكن « وهو ماله ؟! » .

ثم لقى أبى النهاية المحتومة التى يلقاها كل خارج على القوانين الموضوعة . لكن إقامتنا فى القرية أصبحت عسيرة لأننا أحسسنا أننا فقدنا شيئا تتعذر الحياة بدونه .. ذلك هو الشرف .

وأقدمت أمى على عمل حاسم ، فإنها رحلت بنا إلى الإسكندرية حيث بعض أقاربها هناك . ونجح مسعاها فاشتغلت خادما فى أحد المستشفيات وودعنا القرية فى غياب أبى حتى إذا ما قضى مدة الحبس لحق بنا فى الإسكندرية . وألفيناه متعبا مكدودا وبقى كذلك فترة من الزمن ثم زاول فى المدينة عملا لا يحتاج إلى تعلم .. عملا قريبا من حفر الأرض أو حمل الفأس وإن كان وظيفة « مدير » .. يدير معصرة قصب فى أحد الدكاكين ويلبس « مريلة » على « الجلباب » ، ويرفعه عن الأرض قبقاب عال ، ويستعمل المكنسة بين آن وآن ينقل الأعواد قبل العصر وبعد العصر إلى داخل الدكان وخارج الدكان ، ويحمل قدحا من الشاى أو الحلبة المغلاة إلى صاحب المحل من المقهى المجاور .

وجعل أبواى بعد هذه الحادثة يلقوننا أن الجوع خير من السرقة وأن الشرف أغلى من الذهب ، وأن الوقفة أمام « الحكام » تهد الكيان وأن (الشريف) يخرج من كل مكان إلا من السجن ، ولو دخله وهو شريف .

وتعرضت حياتنا بعد ذلك لأزمات عولجت بالصبر أو بالاقتراض



فرأى الناس رجلا متألما خزيان باكيا ، يمسك الغـرارة بيـد ، ويمسـك موضـع الألم من ظهـره باليد الأخـرى

أو بالفرار من الأزمة بتأجيل حلها حتى تعرضت أنا لنفس التجربة فأخذت أستعيد كل ما قصصته عليك .. حتى قطع على أفكارى انفجار أعقبته طلقات مدافع ثم تأهبت الإسكندرية بعدها لتقاسى ليلة من ليالى الهول .

وكان أبى طريح الفراش والأسرة فى حاجة إلى أشياء كثيرة .. وكنت وحدى فى المحل التجارى الذى أعمل فيه بعد أن تركنى صاحبه أول الليلة لثقته ، والحاجة عرضت له ، وكل شىء أمامى ، حتى المال .



واستبد بى الأمر وضيقت الحاجة على الخناق وبدأت أقتنع أن البطون لا تعترف بعجز الأيدى وأنه لابد من الإقدام .

ولشد ما تغيرت بعد ذلك فكرتى عن الموضوع . أنزلت نصف الباب ووقفت فى بقية الفتحة أرعى الأمانة وقد خيل إلى أن لصوصا عديدين سيهاجمون المحل وأن من حق صاحبه على أن أدفع عنه أيدى الواغلين .

واستولت على الفكرة فعجبت لنفسى إذ رأيت فيها شابا يحرس المال من غيره ثم لا يدفع عنه عدوان يده ، فخجلت . وغابت عنى كل الصور إلا صورة واحدة .. صورة رجل يمسك غرارة بيد ويمسك موضع الألم من ظهره باليد الأخرى وهو مسوق إلى مخفر الشرطة . ثم صورة أسرة هاجرت من القرية لأنها فقدت شيئا تعذرت عليهم الحياة بدونه ، فتنهدت .

وكانت الفرقعة قد كفت منذ مدة وأطلقت صفارة الأمان ، فأضيئت الأنوار .

ودخلت إلى المحل ، وجعلت أتلفت فى كل صوب لأطمئن على ما فيه . ومضت برهة رأيت بعدها صاحب المال واقفا على العتبة وهو يسأل مخلصا آمنا :

— هل كل شىء على ما يرام يا صديقى ؟

فأجبت باعتزاز الشرفاء :

— أجل .. أجل .. كل شىء على ما يرام .

★ ★ ★

النسيان

(النافذة الغربية)

كانت نظراتها فى الخارج تتغير خلال الشجر على الفضاء الساكن المنبسط أمام البيت و لم يكن معها أحد إلا أفكارها . ونوافذ الحياة موصدة فى وجهها إذا استثنينا واحدة . وكانت نافذة حقيقية تشرف من حجرتها على الفضاء الساكن .

كان رأسها فى هذه اللحظة ميدانا لمعركة ليست جديدة وليست غريبة لأنها خاضتها ضد نفسها للمرة الخمسين .

إنها تريد أن تنسى رجلا ! لكن تطلب النسيان ليس إلا صورة كبرى من صور الحب يعترف فيها المرء بهزيمة نفسه ويلتمس الطريق إلى التراجع فى خطوات تقودها الحيرة وتغشى سبيلها الدموع .

وبدرت فى عينيها بوادر الدمع . وتوقفت عن الفيضان كأنها هى الأخرى لا تدرى لها طريقا ، ثم أنفرجت شفتاها فى ارتجافة خفيفة فولدت بينهما بسمة كانت غريبة بين ملامح وجهها المحزون . ثم جعلت تتساءل عن النسيان !

رأت سعادة الدنيا بكل ألوانها معبأة فى برشامته السحرية ، لأنها تريد أن تنسى هذا الرجل . وأصبحت تتملق النسيان بكل ما فيها من عقل وعاطفة . ذلك المعنى السلبى الخالص الذى لا نستطيع فهمه إلا إذا بحثنا له عن مقابل أو شبيه .

وأخذت تبحث حتى اهتدت إلى بغيتها . ثم تنهدت لأن الفكرة حملت

فى طياتها معنى يخيفها ، حملت معنى الفناء . وهى التى حلمت بخلود الحب .

رأت (التذكر) يمثل الحياة ورأت (النسيان) يمثل الموت . بل كان الموت بعينه . موت الحوادث فى نفوسنا أو نزوحها إلى غير رجعة من كياننا إلى نطاق .. مبهم مجهول . ظلامه دامس . لا يستطيع خيالنا إدراك شىء فيه .

وجمدت فى مجلسها كأنها جسد استل روحه فجأة . وركد كل شىء فيها إلا أهدابها التى تطرف . وسكن تيار أفكارها حتى كأن خواطرها جمدت فى مجراها كما تجمد مياه الأنهار .

ثم تحركت فيها الحياة مرة أخرى . فألفت نفسها مصممة على النسيان فأقسمت على أن تفعل وألقت بكل قواها إلى الميدان فى معركة أخيرة .

وتفقدت الميدان فى سكون الليل قبل أن تلقى بكل قواها إلى ساحته فرأته حقلا من الألغام مروعا مخيفا : لأن هذا الرجل قد بث آثاره فى كيانها كله فأضحى فى كل جزء وخالط كل بقعة . هو فى دمها ثالث العناصر وربما كان أولها . وهو فى قلبها صمام من صماماته أو خلية من خلاياه . وهو فى أفكارها كذلك . الفضيلة ما يراه فضيلة وإن خالف الناس . والرذيلة ما يراه رذيلة وإن خالف الناس .

★ ★ ★

اعتبرت علاقتها بالرجال أمرا منتهيا وقضية مفروغا منها بعد أن فقدت زوجها فى عامها الماضى وكفلت لها الحكومة معاشا يستر حالها ويسد حاجتها

فمنحتها خمسة جنيهات على أنها أرملة موظف لم تتزوج بعده . ومنحت بنتها ما يقرب من هذا القدر . وعاشت هاتان النفسان على قوة الدفع وآثار الماضى . تنثر فى نهارها شيئا من دراهم زوجها المفقود وتسترجع فى ليلها طائفة من ذكرياته . وكانت ساعات السكون ولحظات القلق لا تدفع إلى خاطرها إلا كل ذكريات جميلة .

لكنها اعتبرت علاقتها بالرجال أمرا منتهيا لأنها لم تكن بارعة الجمال ولعل الترمل الباكر الذى طرق عليها بابها قد قص شيئا من محاسنها القليلة فلم تحاول أن تلقى شبكتها مرة أخرى . وكان ترددها على مراقبة المعاشات فى وزارة المالية كل ثلاثين يوما أشبه شيء بالامتحانات الشهرية التى تعقد للتلاميذ فقد كانت هناك فى ثيابها السوداء بين صفوف الأرامل أتعس امرأة . معاشها ضئيل وجمالها ضئيل فلم تقو على اجتذاب قلب واحد !

واتجهت هذه السيدة وجهة أخرى لأنه لابد من متنفس لكل عاطفة مكبوتة وبقيت على ذلك عاما كاملا أحست خلاله كأنها تقطع طريق الحياة بين أفراد قافلة عجيبة كلهم نائمون لا يخاطب إنسان فيها إنسانا لكنهم يدرجون على الطريق فى ظلام . وصمت شامل .

أما المتنفس الذى صبت فيه عواطفها كلها فقد كان بنتها « سميرة » الصبية الطيبة الهادئة ، الجميلة الحسناء . بنت الثمانى السنوات التى ورثت من ملامح أبيها الفقيد شيئا كثيرا . كانت تشبعها حنانا طول النهار ثم تحتضنها بالليل بعد أن ينتهى سهرها فى استذكار الدروس . وتمسح الأم على شعرها وخديها ثم تربتها وتحتضنها وتهدى إليها قبلة كأنها رسوم النوم . فلا تلبث سميرة بعدها طويلا حتى تسترخى أهدابها فى ثقل جميل

ينقلها وشيكا إلى عالم الأحلام .

قلما كان ينطفىء النور بعد ذلك لأن ميعاد نوم الأم لم يكن حان فتترك بصرها يجوس فى ملامح سميرة فيعثر فى خلاله على أمارات واضحة ومشابه كثيرة لرجل مات . كان يقاسمها الفراش ذاته فى الحجرة نفسها وكان يأمر بإغلاق هذه النافذة أو بفتحها ، وكان يطفىء نفس هذا المصباح كما تطفئه هى الآن ...

وانقضى العام بذكرياته وأحلامه ، وأم سميرة تؤدى الامتحان الشهرى فى مراقبة المعاشات فلا تتقدم نحو الإمام خطوة واحدة ، وفعل الإخفاق فعله فى نفسها المحزونة فأحست بخيبة أمل حملتها على انطواء أشد ويأس أعظم فعاشت فى الماضى وأثنت على أيامه ولياليه . ورضا أى مخلوق عن ماضيه وإن كان جليلا يحمل فى طياته الدليل المادى على التأخر والتراجع أو الوقوف على الأقل .

وعادت سميرة فى أحد الأيام من مدرستها الابتدائية باكية حزينة فهال أمها أن ترى دموعها جارية على وجهها الجميل وودت لو افتدتها ببقية حياتها الذابلة . فلما سألتها عن السبب تنهدت بارتياح لأنه كان سهلا ميسور الحل فأهدت إليها قبلات النهار واحتضنتها فى لهفة وهى تقول لها :

— يا سلام بس كده ؟ من عينى دى مدرس ومن عينى دى مدرس .. بس بلاش عياط .

لكن المشكلة أخذت فى نفسها وضعا جديدا بعد أن سخت على بنتها بهذا الوعد . إنها لا تعرف كيف يجلب المدرسون ومن أين . هل تذهب

إلى المدرسة وتستدعى واحدا منهم يتقن تدريس الحساب ؟ ذلك شيء ثقيل وبخاصة لأن الناظرة تعرف أنها أرملة . إذن فهناك حل أجمل . لتكن مدرسة .. آنسة ، تدخل بيتا لا رجل فيه ، أو سيدة ، وإذا كان مدرسا فليكن عجوزا ، رجلا مسنا قارب المعاش سيقف بعد قليل فى صفوف الموظفين المتقاعدين !. المتقاعدين إذا جلسوا ، والمنحنين إذ وقفوا ، والمتعثرين إذا ساروا !

نعم . واحد من هؤلاء .

ولما التقت أم سميرة بالست أم فوزى على بسطة السلم أثناء خروج أم سميرة إلى بعض شأنها ، وجارتها واقفة فى فتحة لتحاسب بائعة اللبن — تبادلنا التحية وتساءلنا عن الصحة . ثم بدا لأم سميرة أن تستعين بخبرة جارتها فى شأن المدرسين لأن عندها من الأولاد ما يستدعى مثل هذه المشاكل . وأبدت الست أم فوزى استعدادا طيبا للمعاونة لأن زوجها يعرف كثيرين من هذا النوع . وبدأت أم سميرة تترك البسطة متحركة نحو أول درجة فى طريق النزول لكنها توقفت فجأة ونظرت إلى جاراتها وقالت فى حزم شديد :

— لكننى نسيت شرطا أساسيا فى الشخص الذى سيقوم لنا بهذه المهمة . وأظن ذكاء الست أم فوزى الكبير لن يخفى عليه مثل هذا الشرط !

وكانت تبتسم فى دهاء فما لبثت أم فوزى طويلا حتى أجابتها :

— من غير شك يا أختى فأنا منتبهة جيدا إلى هذا الشرط .

فسألت جارتها لتمتحن ذكاءها :

— طيب .. وما هو ؟

فأجابتها فى حماسة وابتسام :

— كويس .. ورخيص وابن ناس .

ولم تعرض لمسألة الجنس .. ولا لمسألة السن . وجمدت أم سميرة فى مكانها على الدرجة الأولى بعد البسطة وتحركت شفتاها فى الهواء لكنها لم تقل شيئا . ومرت فترة صمت قصيرة .. قصيرة جدا . قالت بعدها أم سميرة وهى باسمة وقلبها ينبض :

— أهو كده !

ثم أخذت تستمع إلى وقع حذائها العالى على بلاط الدرج .

*** *** ***

وقبلت أم سميرة بنتها بعد أن استلقت فى حضنها كما تفعل المرة الهادئة ثم مسحت شعرها وقالت لها فى صوت حالم : غدا يبدأ الدرس الأول فى الساعة السادسة مساء تماما . وابتسمت سميرة لهذا الخبر الجميل ، لكن أهدابها أخذت تتثاقل كعادتها فى كل ليلة حتى غرقت فى النوم . لكن أم سميرة بقيت ساهرة .

كانت تتدبر ملامح زوجها الراحل فى وجه بنتها النائمة ثم تتدبر ما آلت إليه حياتها وهى فى الخامسة والثلاثين . حياة كحياة الصبار فى الأصيص جافة محدودة ضيقة محرومة . ليس فيها إلا لونان اثنان سواد ليل وبياض نهار . وامرأة وصبية تستلقيان على فراش قديم !

وعجبت لأفكارها المتمردة فى هذا المساء وفتشت عن استسلامها التقليدى فلم تجده ، وأدركت السبب ، لأنه واضح مفهوم . وهو أن

رجلا غريبا سيجتاز غدا عتبة بابها الخاوى .

أخذت تتخيل أى إنسان هو ؟ وترسمه فى صور شتى وأسنان مختلفة وأطوال متباينة وألوان منها الأشقر والخمرى والأسمر حتى أتعبها التخيل وأضجرها الملل فقامت إلى المصباح وأطفأته واستلقت فى فراشها البارد .

لكن كفتى ميزان أخذتا تتأرجحان فى الظلام أمام مخيلتها وكان فى إحدى الكفتين معاش وفى الأخرى رجل قد لا يفيض عليها من ماله ما يساوى هذا المعاش . أعنى أنه ربما كان مفلسا .

ونامت أم سميرة وكفتا الميزان لا تفتران عن التراقص .

ثم دنا الميعاد . ودقت ساعة بندولية عتيقة فى بهو الشقة تعلن أن الميعاد قد بقى عليه ربع ساعة . خمس عشرة دقيقة فحسب . هذا هو الباقى من الزمن ! وأحست أم سميرة بقيمة الوقت كما كنا نحس به ونحن فى الامتحان فسرعان ما أخذت بنتها لتبدل لها ملابسها مرة أخرى ثم إذا بها فجأة تبدل بثوبها ثوبا آخر . كان أميل للزينة منه إلى الاحتشام ، وسرت فى نفسها رعونة طارئة وأخذت تستعجل الدقائق حتى دق الباب !

كان طرقة رقيقة متأنقة تدل على أن صاحبها مهذب فلم تدع الخادمة الصغيرة تفتح بل ذهبت هى بنفسها .. وهبط قلبها إلى أحشائها حين رأته ماثلا فى فتحة الباب .. رجلا !! .. رجلا محنى العود فى يمناه عصا قصيرة وعلى عينيه منظار سميك ورأسه غارق فى طربوشه حتى أذنيه ، وهو لا شك من جيل سيتردد على مراقبة المعاشات بعد عامين على الأكثر .

لكن أم سميرة لم تجد بدا من أن تقول له بنفس مبهور :

— اتفضل . اتفضل يا أستاذ .

فخبط الأستاذ بعصاه على أرض السلم خبطة واحدة حين ركزها على الأرض ، وسأل ليتأكد :

— أهذه هي شقة حسن أفندى البتانونى ؟

فتنهدت أم سميرة والتقطت أنفاسها لتقول له :

— لا ، إنها الشقة التى فوقها مباشرة يا أستاذ . « أوعى تغلط » .

فلما بدأ يزحف متلمسا طريقه مع دوران السلم أقفلت السيدة بابها برفق وهى تهمس :

— اطلع .. الله يخرب بيتك .

وكان الطارق فى هذه المرة عارفا طريقه تماما . كان حضرة المدرس . كان شابا كما تخيلته وكان أسمر رشيقا كأنه مدمن على السهر . وكان قلق العينين كثير اللفتات كأنه عصفور . وكان يفصل بينه وبينها من الزمن عشرة أعوام كوامل ، فقد كان فى الخامسة والعشرين .

وفرغت السيدة من التودد والترحاب الذى رأته ضروريا بالنسبة لمدرس بنتها الوحيدة ، ورجته السيدة أن يعتبر نفسه دائما فى بيته فيطلب القهوة كلما بدا له حتى لا يحس بتعب ولا صداع ثم اتخذت نحوه بعد ذلك خطة سليمة .

عمدت إلى ألا تلقاه إلا فى فترات متباعدة لتسأله عن قوة سميرة وتعرض له فى الطريق بشكل لا أثر للتعمد فيه لكن المدرس كان فى عينيه أشياء غامضة تركت فى روحها أشياء أكثر غموضا إذا لم تواجه بصراحة ولا شجاعة . فقد أخذت السيدة تحس ما يحسه الجائع إذا هبت عليه

رائحة الشواء ثم أدركت أنها وقفت عند نقطة البدء فى قصتها معه يوم استدعاها إلى حجرة بنتها ليقول لها شيئا فلما دخلت عليهما قال لها فى لهجة رقيقة :

ــ أتعرفين يا سيدتى لم استدعيتك اليوم ؟

فقالت باسمة :

ــ لا .. طبعا .

فقال بنبرة ذات مدلول لم تخل مطلقا من رقة مصنوعة :

ــ لأشكو إليك !

ثم أطرق ثم رفع إليها عينيه القلقتين واستطرد :

ــ لأشكو إليك عزيزتنا سميرة . إنها فى هذا المساء ليست على ما يرام .

فقالت الأم :

ــ أهملت واجبها ؟

فقال الأستاذ :

ــ يخيل إلى أن الأمر ليس إهمالا ، إنما هو عدم فهم لموقف الطرف الآخر !!.

فجف ريقها وهزت رأسها مستفهمة وهى تنقر بقدمها على الكليم القديم ففسر ما يعنيه :

ــ أقصد أنها لا تفهم أن أمها تتجشم من أجلها عناء كبيرا .

فبدأ قلبها يخفق واستزادته بناظريها ، فاسترسل :

ــ وكثير من الآباء وهم رجال لا يفعلون ما تفعلين من أجلها وأنت امرأة !!

وكأنها عجبت حين وصفها بأنها امرأة ، هل هى امرأة حقيقة ؟ وسألت نفسها هذا السؤال . وكررته فى خاطرها كثيرا . فأجابتها نفسها إجابة قاطعة حين أحست بالأنوثة تسرى فى جسدها كما تنبض الحياة فى براعم الربيع . لكن أم سميرة حولت مجرى الحديث إلى طريق الدراسة لتغطى عليه ما بها فقالت :

— هل تراها محتاجة إلى حصتين فى الأسبوع بدلا من حصة ؟

فأجاب :

— أظن ذلك ، ولو كانت بلا مقابل ، من أجل سميرة الغالية .

فأجابت :

— وهو كذلك .

حدد لها الموعد . وانصرفت مضطربة . لكنها كانت مرتاحة لأن رائحة الشواء ستهب عليها مرتين اثنتين فى كل أسبوع وإن بهظها الأجر . ليكن !

***

واتسقت الأمور جيدا . ولكن فى نفس كل منهما . كان على أحدهما أن يخطو خطوة نحو الآخر وكان كل يرجو أن يتقدم زميله أولا . أما كيف تكون الخطوة فذلك ما حاد عنه خياله . لأن فى البيت تلميذة وخادمة وكلتاهما فى سن واحدة .

ونسيت السيدة كل ما فى نفسها تماما لمدة يومين اثنين زارها فيهما أخوها زيارة عاجلة فأسبغ عليها وعلى بنتها من حنانه وحبه ما أنساها حلاوة النداء الذى ينبع من قلبها بعد مقدم مدرس الحساب ، لكن زيارة

أخيها لها ختمت ختاما غير منتظر فلقد تعلقت بخالها وهو مسافر إلى المنيا فصحبها معه لتقضى إجازة نصف السنة ثم تعود .. وهى رحلة لا بأس بها تفيدها صحيا ودراسيا وترى هناك أبناء خالها ثم ترجع .

وأوشكت الأم أن تلغى الحصتين فى مدة الإجازة ولكنها لم تعرف وسيلة إلى ذلك ..

ولم تشأ أن تسمى عملها هذا تدبيرا ولكنها سمته إهمالا ولو أن الإهمال والتدبير قد يفضى كل منهما إلى نفس النتيجة التى وقعت حين دق مدرس الحساب على الباب فى الساعة المعلومة وفتحت له الخادم الصغيرة فدلف إلى الحجرة التى اعتاد أن يلقى تلميذته فيها كل حصة .

وجلس ينتظر ولكن أحدا لم يدخل عليه .. وخيل إليه أن البيت شديد الهدوء حتى كأنه خال من كل ساكن . وكانت منضدة التلميذة عارية من الكراسات ومن الكتب التى تحضر عادة قبل كل درس . كان كل ما عليها مرتبا منظما حتى فرخ الورق المشمع الأحمر بدا مستريحا فى مكانه كانه لم تمسه يد . ومضت دقائق عشر ولم تدخل سميرة ولم يسمع صوتها ولا وقع أقدامها . وبدأ ينظر فى ساعة معصمه بقلق ويرمى بنظراته فى كل صوب . وسمع باب الشقة يفتح ثم يقفل بعنف وأقداما تلبس القبقاب تطقطق على السلم هابطة إلى الشارع . ثم ساد سكون !

كانت معركة نفسية لا تزال ناشبة فى الحجرة الأخرى حيث كان جالسا عازمة على شىء إلا على أن تقول : إن سميرة فى سفر !! وسبقها إلى دخولها عليه عطر خفيف . كان أخلاطا من رائحة أحمر الشفاه والبودرة والعطر . وهناك رائحة رابعة هى رائحة المرأة فى المكان الخالى . ولما

صافحت أنفه هذه الروائح وهو فى مجلسه هيأته لاستقبالها تهيئة سحرية . ودخلت عليه رافعة راية الأمان .. أعنى راية الزينة ! وومضت عيناها ومضة سريعة وهى تجاهد لتكتم اضطرابها حين خاطبته قائلة :

ـــ آسفة يا أستاذ .. إنها مسافرة .

ثم جلست بالقرب منه . وجالت عيناه القلقتان فى كل ناحية وامتقع لونه الأسمر امتقاعا وشى بما فى نفسه ثم قال فى رقة :

ـــ كده .. ولكن لم لم تخبرينى بذلك من أول الأمر ؟

فأجابت فى تكسر وتهالك :

ـــ آه .. حاولت.. ولكننى لم أوفق !

فضرب بكفيه على فخذيه وهو يقول :

ـــ إذن فلأنصرف .

فتقدمت نحوه تحول بينه وبين الانصراف :

ـــ لا .. حتى .. تشرب شيئا .. إن الخادمة فى الخارج تشترى .. تشترى .. تشـــ ..

وطفت فجأة امرأة كانت غارقة فى لجة الحزن وبحر من النسيان . امرأة لم تكن أم سميرة تعرفها منذ عام ونصف عام ، منذ مات رجلها . ورأى الشاب أمامه أنوثة استطاعت أن تغير هذا الإهاب فتجعله جميلا . وهذه الشفاه فتجعلها جذابة ، وبخاصة بعد أن ماتت عليها الهمسات .

وبدأ يشرب .. ولو أن الخادمة لم تحضر المشروب . وكأنه كل شىء مختصرا جميلا واضحا كأنه متفق عليه ، محدود المعالم والخطوات .

سألته فى اللقاء التالى بعد أن فتحت عليه باب مسكنه فى ظلمة الليل

بمفتاحه الثانى وبعد أن تركت فى الشقة صبيتين تركضان فى عالم الأحلام :

ـــ هيه .. كيف قضيت الليل بعد افتراقنا ؟

ـــ كان جميلا .. يقصره النوم الهادىء .

ـــ لكنى أريد أن أقطع العلاقة .. سأقتلع الشجيرة بسرعة قبل أن تسرح جذورها فى التربة .

ـــ أترين هذا ضروريا .

ـــ جدا .. إلا إذا كنت ترى رأيا آخر ..

ـــ عليك أنت أن تعقدى القبة فأنت التى وضعت التصميم وأنا دائما عند رأيك . لكن لا تنسى أن هناك عقبات إذا فكرت فى الزواج مثلا .. وأقل هذه العقبات .. السن !

فانطوت على نفسها كما تنطوى الهرة المجروحة وبدا لها أن التراجع ميسور ما داما فى أول الشوط وأن الصراحة العارية الجارية التى يخاطبها بها إن هى إلا من مميزات شخصيته القوية . لقد مشت فى علاقتها هذه كما يمشى النائمون فداست على شىء لين ، وإذا به ثعبان .. يجب عليها أن تتلمس طريق الرجوع وأعلنت إليه رأيها هذا فوافقها فى صمت راغب وبنظرة متطلعة . و لم يكن هناك بأس من الوداع ، ثم تركت له المفتاح الثانى ورجعت إلى البيت .

* * *

سهرت تناقش فى أعماق نفسها عن « نفسها » القديمة . وتتطلب المرأة المحرومة الراضية المترددة على مراقبة المعاشات فى كل شهر ، المستلقية فى فراشها الموحش كل ليلة ، المتفرسة فى ملامح بنتها لتتصيد منها

ملامح زوجها الراحل..

لكن هواتف الشوق نغصت عليها الحاضر التافه وندرتها بمستقبل ثقيل الوطأة .. كنفس المستقبل الذى ينتظر الحقل الأخضر إذا قطع عنه (الرش) وحيل بينه وبين قناة ماء وحيدة !

« لو كنت أراه فحسب ! . لو كنت أراه فقط . بالعين وحدها يارب ! » .

وهمست بهذا شفتاها همسات تلقائية بحتة وهى مستلقية على جنبها فى الفراش بعد أن دقت الساعة البندولية العتيقة المنزوية فى الصالة دقة تؤذن بالواحدة بعد منتصف الليل ، فنبهت فيها ذكرى اللقاء الأول .. يوم كانت بانتظار أول حصة ، فدق الباب رجل عجوز ، ثم .. وأكملت القصة فى خاطرها للمرة العشرين .

وكان النور يغمر كل شىء حولها وبنتها تحلم لأن شفتيها كانتا تضطربان بالحركة فهزت الأم رأسها متسائلة عما عساها تحلم به ثم عادت إلى شأنها :

« لو كنت أراه . بالعين وحدها يا رب » !

إن الدرس الأخير قد كان منذ أسبوع وليس هناك داع لأن يتردد علينا من جديد .

كان فى علاقته معها كالنهر سواء بسواء . عليها أن تحمل جرتها وتذهب إليه .. أما العكس فقد كان غير مفهوم . هذا هو الذى حدث . وقد انتهت الحصص فكيف يجىء . ليت سميرة تخفق فى العلم نفسه . قادر على أن يجعل لها ملحقا فى الحساب . وكادت تدعو الله بأن ييسر لها

ذلك ، لكنها حنقت على نفسها وعضت شفتها واستغفرت دون أن تدعو الله . ثم انبسطت أساريرها لأنها خمنت أمرا . ستعلن النتيجة وسيذهب هو ليراها ثم يجيء مهنئا .

وفى عصر يوم من الأيام دقت على الباب يد معروفة . لم تكن تدق على خشب ولكنها كانت تدق على شغاف قلبها من خارج وقال ثلاثة فى المسكن الصغير بحركة تحمل الترقب والشوق والتطلع الشديد :

— مين ؟

وكانت سميرة ترقب نتيجتها والخادم ترقب أمها التى تأتى كل ستين يوما لتقبض عنها أجرها وتسافر . أما الأم فقد كانت ترقب شيئا أضخم من هذا جميعه .

وكان الثلاثة لدى الباب حين فتحت أم سميرة فانتصب فى الفتحة مباشرة بقوامه المألوف وحركته المتلفتة الكثيرة وقال وعلى شفتيه معنى وفى عينيه معنى كذلك قولا مختصرا غاية فى الوضوح :

— مبروك .

فلم تجب الأم بشىء لأن غصة فى حلقها أخذت عليها مسالك الكلام . أما سميرة والخادمة فقد جعلتا تتواثبان وتقفزان من الفرحة كأنهما تلعبان الحبل . ودام الموقف هكذا برهة كانت كأنها دهر أخذ المدرس بعدها طريقه نحو حجرة التلميذة وهو يقول للسيدة التى تمشى خلفه كأنها مشدودة إليه :

— فين الشربات ؟! والله زمان !



ثم تركت له المفتاح الثانى ، ورجعت إلى البيت

(النافذة الغربية)

وهبطت الصبيتان دون استئذان ولا وعى تجلبان زجاجة كبيرة من عصير الفواكه من صميم « مصروف » سميرة وجلس المدرس معها .. مع الأم حيث التقيا اللقاء الحقيقى منذ شهور وكان كدأبه تدور عيناه فى تشوف وقلق كما يفعل العصفور ويخبط بكفيه معا على فخذيه معا بحركة واحدة . ثم يبتسم ثم يعود فيتلفت . أما هى فقد بدت تمثالا دامعا لاهثا ولا شىء أكثر من ذلك . وقبل أن تفوت الفرصة ابتدرها يقول :

— مالك ؟!

فهزت رأسها وقالت وريقها جاف :

— مفيش !

— عيانة ؟!

— أيوه .

— بإيه ؟

— بيك ! أنت دائى . لسه مش عارف ؟!

أعطاها جرعة من الدواء ، سريعة عاجلة ، كحقنة الكافور التى تنعش القلب . أعطاها قبلة كانت تعويضا ووعدا وإغراء قطع تدفقها عليهما كبكبة أقدام الصبيتين وهما تصعدان السلم ومعهما زجاجة عصير الفواكه وقطعة من الثلج كانت ضرورية .. وانفصل الجسدان .

ثم اجتمع الأربعة فى حجرة واحدة وبدءوا يشربون عصير المانجو ويتحدثون بتوافه تناسب من حولهما من الصغار . ثم ضرب المدرس بكفيه على فخذيه ضربته المألوفة كعادته عند انتهاء الجلسة وقبل سميرة فى جبينها فارتجفت الأم ، وكثيرا ما تقع القبلات فى المجالس العامة على غير

الخدود المقصودة . وتحرك المدرس وموكب من ثلاث يمشي خلفه والأم في مقدمته ، وسدت فتحة الباب في وجه من وراءها عندما التفت إليها ليصافحها قبل هبوط الدرج وسألها بعينيه : هل تريدينه ؟ فقالت عيناها على الترتيب : « نعم . لا . نعم . لا . مش عارفة .. اللى يعجبك ! » .

وكانت يمناه في جيب سترته الجانبي ، فلما أخرجها ليصافحها دس في كفها المفتاح . فأخذته دامعة العينين .

***

والطبيعة دائما تعطى المتوسط .

تسخو وتبخل في كل ما تفعل فتحقق لنا حالة وسطا من حيث لا نشعر .

هو هذا دائما في أعمالنا إرادية وغير إرداية

من أجل ذلك عكف العشيقان على تبديذ الليل بعنف وقسوة لمدة أسبوع بعد استرداد المفتاح . ولما أيقنت أم سميرة أنها تذهب إلى النهر بجرتها لتملأ ، والأمر لا يعدو هذا الوضع مطلقا تمادت في فعلها قبل النكسة التي تجيء منها أو تجيء منه أو التي قد تجيء من طرف ثالث منفصل عن شخصيتهما ، كأن يكفهر الجو .

ثم حدث ما كان يتوقع .

عادت من رحلتها الليلية وأدارت المفتاح في باب شقتها ثم دخلت إلى غرفتها فإذا بها يغمرها النور وإذا بسميرة جالسة في الفراش والدموع عالقة على أهدابها السود ، فلما رأت أمها بملابس الخروج في ساعة غير مألوفة استحالت شفتاها إلى علامة استفهام كأنها لسع النار أو جلد

السياط ثم استبانت من ملامحها قليلا قليلا ملامح رجل كان يشاركها الفراش وهو الآن ثاو تحت التراب منذ أكثر من ثلاثين شهرا وكان يعاتب ! فانكبت الأم على بنتها تقبلها وهى لا تعلم أى الملامح تقبل وانزلقت من بين الشفاه الأربع همسة تسأل :

— كنت فين يا ماما ؟

— فى الأجزخانة يا حبيبتى . بحثت عن دوا للمغص .

— وأنا كان المغص صحانى من النوم .

— معلهش .. من السمك .

— وفين الدوا ؟

— ما فيش أجزاخانات سهرانة .

— طيب . أنام ! .

ثم تمددت حيث تنام وطرفت بعينيها بين آن وآن وهى تقول :

— آه ..

ويدها الصغيرة على جنبها الذى لا يلاصق الفراش . ثم تباعدت المسافة بين كل آهة وأختها حتى انقطع الصوت وانتظمت الأنفاس وتراخت الذراع فسقطت إلى جوار الصبية .

وكانت الأم تخلع ثيابها وهى ترقب البراءة التى تحتال عليها بالغش والنفاق وقلبها يتلظى أو يتشظى .

وسهرت فى فراشها الليلة تستنجد بالنسيان وصممت على أن تنساه . فكتبت إليه تقول :

« أنا لا أطلب منك شيئا أكثر من أن تعاونى .. عاونى .. على أن

أنساك فإن استسلامى يعذبنى . يحز فى نفسى أن الوسيلة أصبحت غاية فهل تستطيع أن تمد يدك إلى امرأة وضعتها الظروف منك فى هـذا الموضع ؟ أنا مخطئة ومعترفة بالخطأ وأنت لا ذنب لك فلن أتهمك ، ولكن عاونى .. كمخلوق ضعيف ، له بنية .. أرجوك !! .. باسم أى شيء ولو كان الإنسانية !! » .

وضعت الرسالة على مكتبه وهى فى طريقها إلى الخروج ذات ليلة . وانقضى أسبوع ووقفت أمام صوان الملابس لتخرج أحد أثـوابها ، ولبسته فأحست أن فى جيبها شيئا . وكان المفتاح .. المفتاح الملعون . كأن يدا من حديد دفعتها إلى الوراء .

ونام كل شيء فى البيت فإذا بها تهم بالخروج ، ستذهب لترى على الأقل فعل خطابها فيه لأنه هو الطرف الذى يملك التخليص .

وأدارت المفتاح ببطء وقلبها يخفق ، ولم يكن فى الصالة نور ولا فى حجرة نومه فأحست أن المكان خال عليها فركبها خوف مبهم وأشعلت مصباحا ودلفت إلى حجرة المكتب فإذا بالرسالة فى موضعها لم تبرح . فدلفت إلى حجرة نومه فشعرت كأنها تشم روائحه كلها : رائحة شعره . وسجايره . ورائحة أنفاسه . وتصورت عينيه القلقتين تجوسان خلال وجهها الذى لم يلفت نظر رجل إليها وهى بين صفوف الأرامل فى مراقبة المعاشات .

لقد كان على سفر . فتسللت فى الظلام قافلة إلى بيتها وأغلقت بابه ووضعت المفتاح فى جيبها بحرص وحذر حتى لا يضيع . وكان أول ما عملته عند وصولها إلى بيتها أن فضت غلاف الرسالة التى كتبتها بيدها

وجعلت تقرأ كأنها آتية إليها من إنسان آخر .

و لم تملك دموعها .

لكنها مزقتها ورمت بقصاصاتها من نافذة خلفية تطل على مسقط من مساقط المنور ثم دخلت إلى فراشها وألقت نظرة على سميرة ومصمصت بشفتيها وهى تهز رأسها وتقول فى سرها : « ما بيدى » . وأطفأت النور .. ولا يزال المفتاح حتى الآن حائرا بين الذكر والنسيان !!

★ ★ ★

الناقة العربية

أخذت روائح الرضا تهب على اسره النجارة مرة أخرى بعد أن مسح الزمان على جراح الوالد بيد على أطرافها شيء من المرهم. وبدأ عقدهم يلتئم كل مساء فى دهليز دارهم المكشوف الذى يقع تحت ناظرى مباشرة كلما أطللت من النافذة الغربية.

كنت أراهم فى ليالى الصيف مفترشين الحصير تنصب عليهم أشعة القمر فتغنيهم عن المصباح أو تلمع فى كانونهم جمرات الخشب فتلقى عليهم نورا أحمر إن لم يكن هناك قمر. يتبادلون الحديث الساذج المطبوع بطابع الرضا والمسالمة والإيمان بالقضاء والقدر.. تلك المعانى التى تمشى فى الريف جنبا إلى جنب مع دقيق الذرة، ومع الجبن الرايب.

مسح الزمان على جراح الوالد فتمثل مصابه. تمثله وتشربته نفسه أيا كان طعمه لأنه من البلايا التى لا تنسى.

كان نجارا فى القرية يصنع ما يصنعه هناك كل نجار. فى أدواته خشونة أدوات أصحاب الحرف فى الريف لأن علمه لا يعدو أن يكون إصلاح ترس أو تركيب فأس أو صنع وتد لحيوان أو شيئا من هذا الذى لا يغنى عن أصحابه كثيرا، فهو لا يصنع خوانا ولا صوانا ولا كراسى ولا أثاثا مما خلقته الحضارة.

ثم أعفاه الزمن من حرفته التى بلغ حد نقمته عليها أنه أقسم ألا يعلم ابنه إياها. لكن طريقة الإعفاء كانت كريهة، فلقد كف بصره فجأة، حين

نجم فى عينيه ما يسميه الأطباء « ماء » علة تستر نور الأبصار برفق خبيث ثم تدع المقلة كأنها سليمة فتنخدع بها العيون السليمة .

وأصبحت أسرة النجار منذ ذلك الحين موضع رعاية أهل البر فى القرية ، لأن الرجل لم يكن ذا ولد يمكن أن يعوله ولأنه باع أدوات النجارة بثمن بخس زكاه فى نفسه أنه لم يعد محتاجا إلى قدوم ولا منشار .

وأسند إليه الفلاحون عملا يتناسب مع ما أهداه إليه القضاء . يتناسب معه تماما ويكاد يكون « مؤهلا » مشروطا لمن يقوم بمثل هذه الوظيفة فلقد عينوه « ملا » يدير مضخة كابسة ترفع الماء إلى صهريج المسجد . لكن حسن النجار ما كان يرى وحده فى طريق .

كان لابد له من فترة حتى يألف حياته الجديدة . أعنى حياة الظلام الدائم .

فكان ابنه ربيع يسير إلى جواره قائدا خطاه يهديه السبيل ، لأن الذين ينطفىء النور فى أبصارهم وهم كبار يحتاجون فسحة من الوقت لتتمكن بقية الحواس أن تتحمل ما كانت تتحمله العين قبل ذلك .

لابد من وقت للداخل فى دنيا الظلام على كبر حتى تتدرب أذانه على قياس المسافات فيعرف عرض الطريق من أحاديث المارة على جانبى الطريق ، وطول المدى بينه وبين الكلب من صوت نباح الكلب ، وارتفاع النخلة أو الشجرة من همس الهواء فى ذوائب إحداها . ولابد للأنف كذلك من مدة ليتدرب على معرفة الأماكن والأوقات . فيشم رائحة الربيع كما يشم رائحة الشتاء ، ويشم رائحة الصباح كما يشم رائحة المساء ، وهذه هى سنة التعويض التى يجرى بها قانون الحياة !

كان ربيع فى السادسة من عمره ، صبيحا مليحا ، يستأثر بقلبك منه وجه مستدير تشغل عيناه منه مساحة كبيرة . وكأنهما لم تتركا لبقية أعضاء الوجه مكانا ، فشغل الأنف والفم منه أماكن صغيرة .

كنا لا نراه إلا باسما تطرف أهدابه باستمرار إذا ما نظر طرفات حلوة تراسلها ابتسامة دائمة فيتألف من هذا كله معنى يستطيع ربيع أن يتودد به أقسى قلوب الناس .

أما الجميل الشاذ فى ابن النجار فقد كان شعره !

لم يكن يذهب إلى الحلاق لأن أمه كانت تقوم بهذه المهمة . كانت تجز رأسه بالمقص فترى ضربة هنا وضربة هناك ، وشطبا فى الشعر كأنها شطب السيف أعلى الجمجمة « شوشة » وفى أعلى الجبين كذلك « شوشة » أخرى .

.. منظر شاذ لا تتصوره عينا مدنى لكنه أحلى من الشهد موقعا فى قلوب الناس وبخاصة إذا ثارت هذه الخصلات مع هبات النسيم .

كان أكبر أبناء أبيه على حداثة سنه كما كان المحور الذى تدور حوله آمالهم وآلامهم وبخاصة بعد أن فقد الأب نور عينيه . وكان إذا ما جن الليل وجلسوا فى الدهليز المكشوف يناديه ألف مرة كأنما كان اسمه — كما يقولون عنه — إداما لخبزهم وسكرا لشايهم وكعكا فى ليالى العيد . وكان مسكنا للآلام إذا ما ثارت فى نفس الزوجين حوادث الماضى .

.. كان ترفا .. وكان ضرورة ، كأنما تدور الأرض فى نظرهم حول محورها بين كفيه !



لابد من وقت للداخل فى دنيا الظلام على كبر ،
حتى تتدرب أذنه على قياس المسافات ..

وقد رأيته منذ أسبوع وهو واقف إلى جوار أبيه فى ضحى يوم العيد وكان يجمع بيده الصغيرة الملاليم فيعطيها للأب ، وأقراص الفطير وأطواق الكعك فيضعها فى غرارة . يجمع كل هذا الذى يقدمه الصبيان أجرا لركوب أرجوحة الصناديق التى يملكونها والتى صنعها أبوه أيام كان مبصرا وطلاها بألوان زاهية تجمع بين السذاجة والاضطراب لكنها تسحر لب كل صغير . وكان عليه جلباب جديد أحمر وعلى فمه ابتسامة جديدة بيضاء وفى قدميه حذاء قديم أسود واسع قليلا يثير به التراب إذا ما خطا على الأرض .



وهذا هو الدهليز المكشوف يقع تحت ناظرى وقد أطللت من الشباك . وفى السماء هلال مولود لم يستطع نوره أن يبين الأشباح فى دار حسن النجار بوضوح كامل . لكن الذى أثار فضولى وهيج انتباهى أن سحابة هم كانت ترفرف على المكان .

كان جوهم ثقيلا فى نواحيه وحشة كئيبة . وهناك قدر على النار يسطع بخارها مختلطا بدخان حطب القطن و « قوالح »الذرة . والأم منحنية على صغير يمتص درها ويصرخ بين فترة وفترة فتسد فمه بإلقامه الثدى .

أما الأب فكان منزويا ساكنا ، وعلى الحصير بين أيديهم رقد ابنهم ربيع .

وطالت جلستى فى النافذة الغربية حتى هجعت القرية فلم يعد ينتهى إلى مسمعى إلا أصوات بعض الفلاحين يجأرون بالغناء على صرير الطنابير التى تروى الأرض فى موسم التحاريق وبعض ضفادع طال سمرها فى البركة القريبة .

وانطفأ الكانون ونام الرضيع ثم نادت الأم ابنها الأكبر لينهض فيتناول شيئا من صدر دجاجة ذبحتها من أجله ولكنه لم يجبها إلا بضجر وأنين .

ولم يطل بينهما النقاش لأن الأب تحسس رأس ولده وقال مخاطبا زوجه :

— دعيه مرتاحا !!

ثم رفع رأسه إلى السماء وهتف مخاطبا ربه : يا إلهى .. أنت جاهى !! آه !!

وصاح ديك مع الفجر واتصل صياحه بعويل امرأة حتى كأنه امتداد لهذا الصياح .. فهببت مذعورا وأطللت على دهليز حسن النجار لأننى لم أكن نسيت أن ابنه مريض ، فرأيت على نور أول شعاع من الفجر شبح الأبوين وهما يتنزيان من الصدمة كما تتنزى كرة المطاط بين الأرض ويد اللاعب . و لم يكن أحدهما يقول شيئا جديدا على سمعى ولا غريبا عما تعوده .. بل كانا ينادیانه باسمه .. وباسمه فحسب !!.. كأنما كانا يتوقعان أن يجيب نداءهما !!

ثم درج الزمان فى طريقه غير ملتفت لشيء أبدا وأظل المساء الأول بعد غياب الصغير عن دار أبيه ، وانصرف بعض النسوة وبعض رجال كانوا يعزون وخلت الدار بالزوجين . وأطللت من نافذتى كأنما لأسهر على وحدتهم من بعيد فرأيتهما ينطويان على نفسهما ويتكور كل منهما فى ركن ويستسلم للنوم فى سكون يائس . لكن الحال لم تدم على هذا المنوال فقد بدا الجزع واضحا على الأب فى الليالى التالية أما الأم فقد كان حزنها كئيبا صامتا كأنه حزن القبور . لكن حسن النجار كان يقضى الليل فى حركة وكلام لا ينقطعان ، اللهم إلا فترات من الصمت خيل إلىّ أن الرجل كان يناقش فيها قضية نفسه ثم يعلن نتيجة النقاش جملا قصيرة لعلها عتاب تشوبه الشكوى أو شكوى يمازجها العتاب ، فيقول :

— يا إلٰهى .. ضاع عكاز الأعمى ، وبقى الأعمى بلا عكاز !!

ثم يقوم ليقطع الدهليز فى جيئة وذهوب ويداه ممدودتان أمامه كأنما ليتقى بهما شيئا يخافه . يفعل ذلك وهو يردد :

ـــ عكاز الأعمى يا الٰهى .. عكاز الأعمى يا رب !!

كنت فى نافذتى أتدبر القضية التى يتدبرها حسن النجار وأحاول أن أصدر فيها حكما لكننى لا ألبث أن أتنحى عن الموضوع لأننى لست جديرا بأن أحكم فيها . لكن معنى واحدا سيطر على إحساسى حتى استرقنى وجعلنى عبدا له وهو أن الموت ضرورة لهذا الرجل !!

كنت أراه يسير فى طريق له شعبتان إحداهما جنون والأخرى هلاك فتمنيت أن تهديه قدماه اللتان تقودهما الأقدار إلى الشعبة التى تفضى إلى الموت ، فإنها خير على كل حال .

⁂ ⁂ ⁂

ولم يقو حسن النجار بعد ذلك على إدارة المضخة لملء الصهريج ، لأن قواه خارت من أثر الصدمة ، ولم يكن هناك من يهديه السبيل بعد أن خرجت امرأته إلى العمل فى الحقول .

وحرم أهل الحارة على أبنائهم أكل التين الشوكى مدة طويلة ولم يعد أحد منهم يسمح لابنه أن يتسلل من مرقده فى الصباح الباكر ليسبق غيره إلى جمع البلح من تحت أقدام النخل حتى لا يفضى به المسير إلى الربوة العالية التى تغطيها أشجار التين جهامة وجفاوة ، فيلقى مصير ربيع بن حسن النجار .

تسلل إلى هناك وفى يده قطعة من الصفيح زاحفا على بطنه كما تفعل القنافذ حتى لا يراه الخفير . وكان شعره مشعثا وصدره مفتوحا ولكن الابتسام الفطرى كان يغلب على وجهه آثار نوم عالقة فيه . وأخذ ربيع يعمل سكينه فى الثمار ويأكل حتى تسلل أول شعاع من أشعة الشمس من

خلال الشجر و لم يكن يعلم أنه ظلم نفسه وأنه ملأ بطنه « زلطا » وحصباء ، وأن هذا كله سيكون آخر زاده فى الدنيا ... ثم ... رانت الوحشة على الدهليز المكشوف .

* * *

قلت لطبيب المستشفى المركزى بعد أن رأيت على وجهه دلائل الألم :

ـــ إن رأيى فى مشكلة النجار قديم يرجع عهده إلى تاريخ موت ابنه . فقد كان الرجل يتعذب إلى حد جعلنى أدرك مغزى خلق الموت والحياة . أجل يا سيدى إن الموت شيء يجب أن يخلق .

فهز الطبيب كتفه وقال لى بصوت لا يخلو من العتاب :

ـــ أتحدثنى عن الموت ؟! أتحدث الطبيب عنه وهو المحور الذى تدور حوله أعماله ؟!

فقلت :

ـــ عفوا ، بل قصدت أنه نعمة بالنسبة لذلك النجار .

لم يتكلم النجار منذ دخل المستشفى بكلام مفيد بل كان يخلط فلم يفهم أحد من جيرانه شيئا . وها هو ذا فى فراشه اليوم يحيط به « برافان » ليعزله عن بقية الحجرة حيث الحياة مرجوة والشفاء مرتقب .

وكان لابد لحسن النجار أن يدخل هذا المستشفى لأنه كثيرا ما ضاق بالوجود فاستعان بعصاه وخرج هائما على وجهه . حتى إذا ما استقبل الفضاء وأحس خلاء الحقول وصمتها النسبى رفع عقيرته صائحا بملء حريته :

— ربيع .. ربيع .. يا ربيع !!

فلا يرد عليه إلا الصدى !!

وظل يفعل ذلك من حين إلى حين حتى تردى ذات يوم فى حفرة عميقة على رأس مزرعة . وكانت هذه الحفرة قد نجمت من أن صاحب الأرض أخذ طينها وحوله إلى لبِن استعمله فى البناء ثم تركها ترتدم رويدا رويدا كلما ألقى فى جوفها بشىء .

واستقر فى أعماقها النجار فأصابه منها ما أصابه ثم انتشل وعلى وجهه دم وطين وفى ضلوعه وأحشائه إصابات عميقة . وقال أهل القرية :

— إن يد أحد الصبيان العابثين هى التى قادته نحو هذا المصير .

قال له الشقى :

— اتبعنى يا سيدى أهدك السبيل .

فلما سأله عن اسمه قال :

— اسمى ربيع .

فتحسس الأعمى رأس الصبى فوجد فيه « شوشة » فتبعه فى غمرة من الأسى والذكرى . وهناك قاد الشقى خطاه إلى أعماق الهوة وكان معه صبيان آخرون تفرقوا من الذعر فى كل صوب حين رأوا ما حدث كما تتفرق العصافير عند فرقعة الرصاصة !!

وقد حرصت — وأنا جاره — على أن أتحرى صحة الرواية لكننى رجعت مبلبل الخاطر وخيل إلى أن كل حادثة تقع مرتين : مرة فى دنيا الواقع ومرة أخرى فى نفوس الناس ، وليس لإحداهما علاقة بالأخرى !!

(النافذة الغربية)

وكل هذا لا يعنى بعد أن وصل النجار إلى ما وصل إليه .

وضعت عند رأسه عنبا وجوافة حملتهما إليه على أمل أن يفيق فيأكل منهما لكنه كان يجد السير نحو نهاية الطريق .

خيل إلى أنه كان مشتاقا ، وأن هوى نفسه أمامه ، وأنه لا يقف ولا يتلفت !!

ورأيته آخر مرة يمد يديه إلى الأمام على هيئة من يتحسس السبيل وهو يقول :

ـــ العكاز .. العكاز .. عكاز الأعمى .

فقدمت له عصاى على الرغم من أننى فاهم كل ما يقصد . فأمسك العصا بين كفيه وقبض عليها بقوة وكانت هناك كلمات ضعيفة لم تخرج من بين شفتيه إلا هواء .. هواء فارغا من كل صوت .

وأخذت يداه بعد دقائق تتخليان عن العصا قليلا .. قليلا .. قليلا .. فالتفت خلفى إذا بالطبيب ينظر إلى وهو يسأل سؤال العارفين :

ـــ خلاص ؟!

فأجبت :

ـــ خلاص !!

وأطللت من النافذة الغربية على الدهليز فى مساء اليوم نفسه فلم أر إلا كانونا لا نار فيه وحصيرا ينعكس عليه ضوء القمر ، وامرأة حانية على طفل صغير ترضعه فى سهوم وصمت ، بعد أن تفرق من حولها النسوة !!.



بقية الليل

كان ذلك منذ عشرين عاما على الأقل ..

أيام كان التعليم مدرجا فى « جدول التسعيرة » . والمدارس تكاد تعلق على أبوابها لافتات كتب فيها « الشكك ممنوع » كما يفعل الآن بعض أصحاب حوانيت البقالة .

وكان أبى على الحدود بين طبقتين . كان فى قمة الطبقة الدنيا ، وتحت أقدام الطبقة المتوسطة ، لكنه كان دائم التطلع كثير الأحلام ، وكنت أنا شخصيا أنقم عليه كثرة تطلعه ودوام أحلامه وحرصه الشديد على أن يعلمنى فى المدارس الثانوية ، لكن نقمتى لم تعد أن تكون ضربا من الخوف على مغامر أو على مقامر . أما بقية أهل القرية فكانوا يتهمونه بالغفلة !!.. ويرون فيه رجلا يريد أن يصعد السماء على سلالم لعاب الشمس أو نسيج العنكبوت !

وعشت فى القاهرة على الكفاف الذى يوفره لى أبى المرهق .. طالبا فى الثانوى .. شابا فى ربيع الحياة .. فى تلك المرحلة من العمر التى خصتها الطبيعة لقوتها بأن تكون مرحلة الكفاح . كنت أجوع فأتحمل الجوع ، وأمرض ، فيجرى فى دمى السم والترياق جنبا إلى جنب بحكم السن ، ويحرق العمل خلايا الحيوية فى بدنى ، فتنبعث تلك الخلايا وحدها مع اليوم التالى متحفزة قوية نابضة حية بحكم السن أيضا !!

و لم يكن زملائى فى الحجرة من الطلبة السكان ممن ارتاح إليهم ، بل كانت العلاقة فى أوجها بينى وبين طالب آخر تعرفت عليه مصادفة ، واسمه بدر المحلاوى و كان طالبا فى حلوان الثانوية ، وشاءت الظروف أن نكون من طلبة البكالوريا فى عام واحد . فربط بيننا الدرس كما جمع بيننا الحب .

كان يبدو عليه أنه ابن رجل غير مكدود ، من صميم الطبقة الوسطى على الأقل . ممن يأخذون أنفاسهم بهدوء وراحة فى طريق العيش . واستنبطت ذلك من مظهره دون أن أسأله .

كان يسكن حجرة مستقلة على سطوح أحد المنازل فى حلوان و كان مستقلا بهذه الحجرة ، أما أنا فقد كنت ثالث ثلاثة فى حجرة بمصر القديمة ، و كثيرا ما عنانى أننا كنا ثلاثة لأن الخلاف إذا دب بين جماعتنا فكثيرا ما كان يتحد على الاثنان .

أما صديقى فقد كان فى سلام شامل . سلام الضاحية الهادئة ، وسلام الوحدة فى ظل النعمة . سرير عليه ملاءة نظيفة و كنبة ومكتب ومصباح من فئة خمس وعشرين شمعة ، وصوان ملابس وأشياء أخرى لا توجد فى حجرة يسكنها ثلاثة .

و كانت نفس صديقى كذلك فى سلام ، كان يتناول الحياة بطريقة أكل « البلوظة » أما أنا فكنت أتناولها كما أتناول عيش الذرة المخلوط بالحلبة . لذلك لم أعد أعجب من نفسى إذا أحسست فى رفقته بطمأنينه وراحة من نوع الطمأنينة التى تمر بنا عابرة قصيرة ، لكنها لذيذة .. هى نفس تلك الطمأنينة التى تتشربها أعصابنا فى الوهلة الأولى من زوال

خطر متوقع .

ولذ لى فى كثير من الليالى أن أرحل من مصر القديمة إلى حلوان لأذاكر مع صديقى (بدر) وكان لابد لى فى مثل هذه الأحيان أن أبيت معه ، وكان يضفى على من آداب الضيافة شيئا كثيرا ، لعل له دخلا فى تثبيت المحبة وإبراز معالمها .. كما تبرز معالم الأفراح بالولائم . وكثر ترديدى لاسمه بين زملائى فى السكن و لم أعد أهتم بخلافهم ولا وفاقهم بعد علاقتى بهذا الصديق ، وأعرضت عن المذاكرة معهم فى الليالى التى كنت أبيتها فى الحجرة ، لذلك كله أصبح هدفا لنكتهم ، وهو بعيد ، وحظى بكرههم وإن لم يروا وجهه . وأطلقوا اسمه على منديل ساذج خشن ، كان يحمله أحدهم ، لأن صديقى يدعى (بدر المحلاوى) كما تذكر . ولجت بهم الغيرة التى لا أعرف سببها إلى حد أنهم كانوا يقولون لى كلما أفحمتهم فى رأى « الحق مش عليك .. الحق على المنديل » ثم يضحكون !!

***

كنت أود بينى وبين نفسى أن أنهى هذه العشرة ، كما ينهى الشركاء أمر أحد الدكاكين لكن رأس المال كان غير قابل للقسمة . فقد كنا نرتمى فى سرير واحد تعاونا على إنشائه ، وإظهاره إلى حيز الوجود . فجاء متعبا مثيرا للخصومة كأنه ابن سفاح .

كان أحدنا يملك هيكل السرير ، وكنت أنا أملك الحشية والمخدة ، أما الثالث فكان صاحب المكتب ووابور الجاز والحلة النحاس . لكن له امتياز أعلى من كل شىء ، هو أن نفقته كانت تأتى إليه أول الشهر بانتظام لا يدرك المفلسين منا ، لأن والده كان من الموظفين .

وبات الاستقلال فى المسكن حلما من الأحلام لطالب مثلى ، إن قدر على الأجر لم يقدر على الأثاث . واتسعت شقة الخلاف بينى وبين الشركاء فأصبحت كمن حبسوه مع الثعبان فى غرارة . لذلك لم أر بدا من إلقاء عبئى على بدر المحلاوى عدة ليال . ننام معا ونذاكر معا ونشرب الشاى والقهوة كلما راودنا النعاس ، وقد نتناول الشطائر إذا تقدم الليل ، كنت آكل معه خمس مرات فى يوم واحد ، على حين أننا نحن الثلاثة فى مصر القديمة كثيرا ما نعتمد على أكلة فى اليوم .

وكان شهرى محاقا كله فيما يتعلق بالنفقات . لم أكن أسمح لنفسى أن أجلد والدى حتى ولا أن أشكو إليه . وحدث يوما أننى فكرت فى هذا الموضوع تفكيرا حادا نوعا ، وشعرت أن هذا الرجل قد ظلمنى ، وعزمت على أن أكتب إليه أبثه ما ألقاه فى حياتى المدرسية من شظف يكره المجاهدين فى الجهاد — لكننى عدت فذكرت جهاده حين بصرت فى الشارع بعربجى كارو يمشى إلى جوار حصانه ومن خلفهما العربة المثقلة بأكياس الدقيق . وكان يصيح بوحشية رعناء وهو يجلد الحصان بالسوط على كفله جلدات لا تنقطع « شى ..شى .. » والحيوان عاجز تماما عن زيادة السرعة . وكان على جسده عرق ، وعلى شفتيه زبد كثير .

قلت فى نفسى : هكذا أريد أن أفعل !! كيف إذن أجلد الإنسان ... وهو فوق ذلك كله .. والدى !

وفى إحدى ليالى المحاق الكثيرة ذهبت إلى حلوان . كنت خالى الوفاض مفعم النفس بالأسى والحسرة ، لأن زملائى فى السكن جاصرونى اقتصاديا وتركونى معتمدا على الله وعلى « المنديل » فى

كل شئونى . و لم يدر بخلد واحد منهم أن لسان الفقر أفصح لسان ، أعنى أن الفقير يكفيه أن يتكلم مظهره فلا حاجة به إذن إلى الشكوى .

من أجل ذلك لم أشك إلى صديقى أمرا ، و لم أقترض منه مالا . لكن موقفى فى هذه الليلة كان تصميما على أن أبيت عنده ثم أقترض منه للمرة الأولى ما أستعين به على البأساء حتى يرسل إلى أبى بشىء من الريف .

و كانت الليلة شتوية غير ماطرة .. لكنها لم تخل من بعض دموع نثرتها السماء ثم كفت .. ثم عادت إلى نثر شىء منها ، ولو أن السحاب كان معظمه جهاما أبيض . والضاحية جميلة مغسولة يساعد هواؤها على الهضم فيكرهه الجائعون !

ودرت فى ظلام السلم بعد مسير ربع ساعة من المحطة صاعدا إلى غرفة صديقى بدر ، وقابلنى بترحاب ولغط شديد كما يفعل ذكر الوز . ثم ختم كلامه مؤكدا أن قلبه كان « حاسس بقدومى » . واشتبكنا من فورنا فى حل تمرين هندسة ، كان مستغرقا فيه ، وامتص التمرين الدقائق والثوانى حتى ألغى الزمن ، وحتى نسيت فراغ بطنى وفراغ جيبى وفراغ قلبى من حب الحياة فى هذه الليلة !!

و لم يصل أحدنا إلى الحل على كثرة الفروض وتخطيط الخطوط ، وأفاق كلانا من استغراقه على وقع خطوات كثيرة مختلفة الثقل والخفة تصعد السلم .

فنظرنا إلى المنبه الذى يواجهنا على المكتب ، فإذا الليل مقارب على الانتصاف ، وخفق قلبى وإن لم أعرف السبب ، وبدا على وجه صديقى

إصغاء واهتمام حين أخذت الخطوات الكثيرة تعبر فضاء السطح . وقام بدر المحلاوى وفتح الباب ، فسمعت صوت رجل كان والده ، وصوت نسوة توقفن عن الدخول ، وصوت عدة « أسبتة » حطها الحمال على الأرض ، فدلت على أنها ثقيلة ثم دخل بدر وفى عينيه أشياء ، فهمت منها أن الحجرة لن تتسع لمبيتى . فجمعت نفسى قبل كتبى وحييت وأنا خارج ، فلمحت فى فضاء السطح شبح امرأتين ، علمت فيما بعد أنهما أمه وأخته رافقتا أباه فى زيارة مفاجئة لبدر ولآل البيت . وعدت والليل منتصف أهبط الدرجات السبعين فى طريقى إلى الأرض ! وجيبى ليس فيه ما يعيدنى إلى حجرتى فى مصر القديمة !

وقفت على باب المنزل برهة وأنا متردد ، وقررت أخيرا أن أعود إلى صديقى فأقترض منه خمسة قروش .. لا غير . وأخذت أصعد السلم وأنا محاذر أن أسمع خطواتى ، ولست أدرى سر ذلك . واقتربت من السطح فسمعت لغط الأحباب حين يجتمعون على غرة وحين يتدافعون فى الكلام تدافع المشتاقين . وهممت أن أنادى صاحبى ، ولكنى خجلت .. أحسست أنى سأنغص على الناس سعادتهم وأن الفضيحة ستكون علنية إذ كيف يستطيع صديقى أن يحضر « الشلن » بطريقة مستورة . فتحسست طريقى راجعا وأنا حريص على ألا أسمع خطواتى !!

سرت أضرب فى الشوارع لا أدرى إلى أى وجهة ! وكان الجو باردا نوعا وإن كنا فى شهر فبراير . ثم بدا لى أن أتوقف قليلا بجوار مصباح النور كأنما لأفحص أفكارى فى الضوء ، فلمحت بغتة شبح فتاة يقترب منى .

حملقت فيها ، لأنها كانت تحث الخطا كأنما لتسألنى عن طريق ، ولما قاربتنى بدت ناحلة متوسطة الطول عليها فستان من الصوف يميل إلى الخضرة . وجهها أسمر متعب كأنها ناهضة من مرض أو فارغة لتوها من عمل ، أما شعرها فقد كان كمجموعة خصل من ذيل حصان أسود شدت إلى رأسها الصغير .

قالت ، وفى عينيها انزعاج ، وعلى شفتيها ابتسامة :

ـــ الساعة كام من فضلك ؟

فتحسست جيبى الخالى من الساعة ، ثم قلت بشكل مرتجل :

ـــ إنها .. إنها الآن داخلة على الثانية عشرة .

فقالت دون أن تتحرك :

ـــ أيوه .. أظن كده .. آ .. لم يزل فى الليل بقية طويلة !

فهمست وأنا لا أعنى شيئا :

ـــ صحيح !.

فقالت ، وهى تتظاهر باستئناف المشى :

ـــ أتنتظر أحدا ؟

قلت :

ـــ نعم .. إنسان أقضى معه بقية الليل !

ـــ أأن وحيد ؟

ـــ جدا !

فقالت ملاحها تحت النور :

ـــ « طيب .. يلا بأه » .



قالت ، وفى عينيها انزعاج ، وعلى شفتيها ابتسامة : « الساعة كام من فضلك ؟ » .

فأحسست بحماقتى فجأة كما تحس بجرحك وهو ينزف ، فسرت دون أن أتكلم ، لكنها سارت إلى جوارى ، وهممت أن أقول لها : إننى ما كنت أقصد كل ذلك ، لكن الكلمات وقفت فى حلقى . وكان فستانها الخفيف يجعلها توحوح بين لحظة ولحظة ، فتصدم وحوحتها أحشائى ، همست دون أن أنظر إليها :

— بيتى بعيد .

— فين ؟

— فى مصر القديمة .

— ليس من عادتى أن أبيت فى الخارج .

فابتسمت أنا ، وعادت هى توحوح . ثم قالت :

— بيتى قريب .

— فين ؟

— ربع ساعة .

— ليس من عادتى أن أبيت فى الخارج .

فابتسمت هى ، وجعلت أنا أوحوح ، ثم قالت :

— أنا وحدى فى حجرة .. تعال نقضى بقية الليل ..

فسرت وكأننى مسحور !

حاولت أن تلبس وجهها الشاحب قناعا من الشهوة ، منذ أغلقت من خلفنا الباب . وكنت أنا من دونها الشخص الذى يعلم موقف الطرفين . قلت بصراحة وجرأة :

— اسمعى يا صديقتى ، دعينا نتحدث قليلا حتى تدفأ أطرافى المثلوجة ، فإننى منهار من كل ركن .

فوافقت . وتبادلنا الحديث بصوت خافت ، وعمدت إلى أن أوسع الجبهة فى ميدان الحديث ، فاخترت موضوعا يهمها لعل أحدا من الرجال لم يحدثها فيه ، قلت :

ـــ أننى أحترمك قبل كل شىء ، وأعلم أنك لم تستعرضى المهن قبل أن تختارى هذا ، ولكن يدا أقوى منك هى التى رمت بك .

فرأيت قناع الشهوة المصنوع يسقط عن وجهها مرة واحدة وظهرت من ورائه المرأة المسكينة المحطمة المظلومة ، فرأيت دموعا فى عينيها تحت شعاع مصباحها المخنوق .

وهكذا نجحت ، لأن التماس الأعذار للمذنبين هو المفتاح الوحيد الذى يدور فى أقفال قلوبهم . و لم تكن مأساتها جديدة . كانت قديمة قدم الأزل . فهى قصة المحبة المخدوعة ، ولكنها أبكتنى . ربما كنا نبكى لمأساة الموت ، وهى التى تتكرر كل ساعة .

ثم أنبنى ضميرى ، لأننى أحسست أنى أغرر بامرأة تبيع وقتها وها أنذا أسطو عليه ، فهممت بالانصراف وأنا أتحسس جيبى من الارتباك والحيرة .

لكنها كانت فى راحة بعد شكواها الهموم ، فأمسكت بذراعى وهى تهمس :

ـــ ماذا تعمل ؟ لن آخذ شيئا . هل منحتك مقابل ما ستعطى . لا .. لا تحاول . ثم إلى أين الآن .. إن آخر قطار إلى القاهرة قد رحل ..

فلم أنبس ببنت شفة .

ولم تشهد حجرة المومس فى هذه الليلة ما تشهده حجراتهن فى العادة . فقد ظللنا نهمس بالحديث حتى بدا جبين الفجر ، كنت منهار الأركان تعبا وإفلاسا ، لكنها كانت سعيدة لأنها لقيت فى إحدى لياليها مـــا لم تلقـــه مـــن رجـــل مـــن قبـــل .

لقد سعدت ليلتها بآلامى ، لأننى كنت روحا خالصا .

فهل كان الموقف يتغير لو أننى كنت روحا وجسدا ؟!

لا أستطيع أن أجزم !!

★ ★ ★

المنزل رقم ٨

(النافذة الغربية)

لم يكن يدور فى خلدى من قبل أن القلوب تفيض فجأة بما لا يدخل فى حسابها حتى رأيت نفسى فى ضحى يوم من الأيام ولسبب خارج عن إرادتى ، واقفا أمام المنزل رقم ٨ ..

رجعت فى هذه اللحظة خمس سنوات فى طريق عمرى حتى لكأن يدا سحرية قذفتنى إلى يد أخرى تلقفتنى فعدت إلى فترة من شبابى لأعيدها مرة أخرى فبدأت أحياها وأنا فى الطريق حياة تقرب أن تكون حقيقة .

كان قلبى فى ذلك العهد أنموذجا فريدا فى طريقة بحثه عن شريكتى فى الحياة لأنه هو فى ذاته أنموذج فريد بين قلوب الناس . كان يرسم الحياة دوائر ومثلثات ومربعات وخطوطا مستقيمة حتى لكأنه أداة من أدوات المهندسين تخفق بين ضلوعى . وكان عقلى فى هذه السن فى مرحلة من المراحل التى تؤمن فيها العقول دائما على أحاديث القلوب فلا تعترض طريقها . ولعل جمال أيام شبابنا الباكر وحلاوة مذاق الحياة فيها راجع إلى القصور الخيالية التى تبتنيها قلوبنا فلا تنقض عقولنا حجرا واحدا من مبانيها .

كان قلبى يصور لى شريكة الحياة مخلوقة من طينية البشر لأنه لم يكن يتطلب المستحيل . لكن هذه البشرية المطلوبة لابد لها من أن تكون جميلة . جميلة النفس ، جميلة الوجه فى وقت واحد . وليس هذا من باب المستحيل بطبيعة الحال لأننا نرى على الأرض بين ظهرانينا وفى كل مكان

وجوها جميلة تأنقت فى رسمها القدرة فصورتها سحرا وخلقتها فتنة ، ثم نحن نرى على الأرض نفوسا جميلة أيضا لكنها ليست فى كل مكان .

قد تكون فى الكوخ وقد تكون فى القصر ، وقد تكون فى أحد المتاجر . وقد تكون فى أحد الحقول . وقد تكون حيث يتطلبها الناس فى العادة ، وقد تكون فى أماكن من التى يتطلب الناس فيها جمال النفوس !! فأحسست فى ذلك الحين أن المشكلة العظمى إنما هى فى جمال النفس .

ثم عرض لى فى طريق حياتى فتيات نسيت قصتى معهن لأنهن لم يثبتن على التجربة وقتا طويلا وكنت أعتبر نفسى فى هذه الفترة الخيالية من عمر كل شاب زوجا مثاليا لابد له من زوجة مثالية فانطلقت نفسى فى الآفاق تفتش وتجرب . ثم نسيت أو أنسيت كثيرا مما وقع لى ، إلا تجربة واحدة تذكرتها وأنا لا أزال واقفا أمام المنزل رقم ٨ أدمن النظر إلى اللافتة الزرقاء المعدنية اللامعة التى تحمل رقمه . أنظر بعينين فيهما شرود وبريق وأخذة وجمود كأننى سكران أو مريض يسترد ذاكرته المفقودة .

كنت غير مهتم بتجمع الصبيان حولى ولا ملق بالا إلى أسئلتهم التى تدور حول المكان الذى أقصده أو الشخص الذى أنشده أو الحاجة التى أريدها . وكنت حاملا تحت إبطى جملة من الأوراق جعلت بعضهم يقول عنى : إنه عامل شركة المياه ، على حين كان فريق قليل منهم يعد نفسه مستأثرا بالذكاء فيقول : لا .. بل إنه محصل المخالفات .. أما أنا ، فقد كان بصرى لا يزال يرسل أشعته تباعا إلى اللافتة الزرقاء المعدنية المثبتة على يمين الباب وكان رأسى معتركا لذكريات أخذت تمر على هيئة عرض سريع يتيح لكل نفس من النفوس أن تذوق حلاوة الأزمان فى ثوان

ومرارة السنين فى مثل طرفة العين .

كنت أحيا وأنا فى الطريق شطرا من شبابى الباكر حين تذكرت هذه التى كان بينى وبينها مشروع خطبة .

كنا متفاهمين فى كل شىء ومتفقين فى كل مشرب فأعجبنى منها مزاجها النارى الحاد الذى لا يهدأ له تيار ولا تركد له أفكار . كانت فى طبيعتها نهرا لا تكاد تسكن فيه الحركة . حرا فى مجراه ، يفيض حين يشاء ويكف حين يشاء . من طراز يفتح للرجل فى أكبر المآسى نافذة هزلية تجبره على أن يضحك فهى كفيلة بأن تضحكه يوم يقامر بماله كله فيخسره ثم يعود . وهى قادرة كذلك على أن تفعل نقيض هذا لأنها جديرة بأن تخلق من أعظم البسمات دموعا كثيرة وكفيلة بأن تفتح للرجل فى أكبر الملاهى نافذة حزينة تجبره على البكاء . يحس معاشرها أنه فى نطاقها دائما .. مجالها المغناطيسى واسع جدا لا تستطيع أن تتحرك خارج نطاقها ولو عبرت البحر . ويخيل إليك أنك تطالع وجهها هى فى وجوه الفتيات جميعا من كل لون ومن كل سحنة حتى لترى سمرتها فى بياض البيض وربما رأيتها فى أبنوس الزنوج .

كنت أتردد على منزلهم وأنا صغير لأن لنا بهم صلة قديمة ربطتنا بكل أفراد الأسرة . ثم قدمت الصلة ورثت حبالها لكنها عادت فتجددت واستحدثت بنيانا أقوى من البنيان القديم . وكان الأساس فى هذا البناء علاقتى بهذه الفتاة .

كانت كما وصفتها لك مضافا إليها خصلة أخرى هى الصراحة .

فقد أوتيت من الشجاعة ما تستطيع أن تقول به كل ما فى قلبها متى شاءت .

وقد تستهويك هذه الأوصاف فتحملك على أن تتخيلها فى صورة جميلة ، لكننى أقول لك : بل إنها على عكس ما تتصور . أنها من ذوات الوجوه التى لا تحب إلا إذا تكلم أصحابها .. روحها يكمل الجسد بشكل يتحمل فيه الروح معظم العبء حتى أننى كنت أحيانا أدمن النظر إليها وهى شاردة أو مستغرقة فى القراءة فتتعثر عيناى فى ملامح ينقصها كثير من الانسجام . ويخيل إلى أننى سأمد يدى إلى وجهها وأنا أقول : لو وضع الأنف هكذا بالنسبة للعينين لكان أجمل .. ولو جاءت فتحة الفم إلى هنا من الصدغين لا تزيد ، لكان أحلى .. ولو امتلأ هذا المكان من الوجه وخف هذا لكان أروع . يخيل إلى أننى كنت أمسك نفسى وأنا على وشك أن أفعل هذا ، أدركها فأمنعها ، ثم أستثير كلامها فتتكلم فأرى التنافر الظاهر بين الملامح يختفى خلف جمال الكلام قليلا حتى يغيب وتبقى هى أمامى وكأنها لبست على وجهها قناعا جميلا .

وعاشت علاقتنا على حساب الروح وحده ، ولعلها هى شخصيا كانت تعلم عن نفسها هذه الحقيقة . لعل ملامحها كانت تستوقفها أمام المرآة ولعلها كانت تحاول أن تمد يدها إلى وجهها لتجرى فيه شيئا من الإصلاح المفروض غير الحقيقى ثم لعلها أدركت بمرور الزمن أن حديثها هو سر جاذبيتها ومعناها فحرصت منذ ظفرت بهذه الفكرة على أن تتكلم كثيرا فى كل مجتمع لتلقى على وجهها ذلك القناع الجميل .

كنا متفاهمين فى صمت على أننى سأعلن خطبتها فى يوم من الأيام لأبويها أولا ثم للناس جميعا بعد ذلك . وكان إيمانها هى بهذا المقصد أشد من إيمانى به . كانت متأكدة من أنها حافظة توازنها على الحبل الذى نمشى عليه معا أما أنا فلم أكن واثقا تماما . كنت لا أزال مشغولا فى الموازنة بين جمال الوجه وجمال النفس لأننى رأيت أمامى وجها غير جميل فعزمت على أن أطيل التجربة التى ستسفر عن حقيقة نفسها حتى لا أعتبر نفسى فى المستقبل زوجا مغبونا خسر المعارك فى الميدانين فلم يظفر بجمال خلق ولا أخلاق .

كنا نلتقى فنتحدث طويلا .. نخوض فى شئون الحياة كما يخوض فيها الناس ، ثم أفيق فإذا بدفة الحديث قد تحولت وحدها أو حولتها يدها — لست أدرى — إلى مستقبل مشترك ومصير واحد يسيطر على شخصى وشخصها . وتتبخر الكلمات التى عرضناها فى معرض حديثنا أو تتبلور لتتركز حول كلمة واحدة تريد هى أن أنطق بها ، ثم أعلنها فى صراحة ، ثم تثبت هذه الكلمة بزغرودة ندية تنطلق من فم أمها أو خادمتها أو إحدى جاراتها المحبات . لكن أنفاسى كانت تضيق حتى لكأن يدا أخذت بتلابيبى حين كنا نصل إلى هذه النقطة فى سمر الليل أو حديث النهار ، وكان ذلك راجعا إلى سبب واحد هو أن تجربة النفس لابد أن تطول حتى يقام بيتنا على دعامة قوية .

وجعلت أدور فى هذه الحلقة عاما كاملا . أزور فيرحب بى ، وأنقطع فأستدعى ، وأتحدث فتضيق أنفاسى إذا ما وصلنا إلى المرحلة التى ستعقبها الزغرودة . لكن الأيام لا تقف مع الواقفين والحوادث لا تقعد مع



القاعدين فقد فوجئت عصر يوم وأنا هناك ، وكنت جالسا مع الأسرة فى مدخل الشقة . فوجئت بداخل فتحت له الباب من فى نيتى أن تكون خطيبتى ثم مر بنا الداخل محييا وهو فى طريقه إلى إحدى غرفات البيت . وكان على شفتيه ظل لابتسامة يسترجعها وهو فى طريقه إلى الدخول ، وخيل إلى أننى رأيت صدى لها على وجه الفتاة . فخفق قلبى لذلك وجعلت أثنى على نفسى التى فرضت على أن أطيل زمن التجربة . ثم تطلعت إلى أمها بوجه ينطق بالسؤال فسمعتها تقول بطريقة فيها معنى من التبسيط واللوم الخفيف :

— إيه ؟! ماذا ؟. أهذا غريب ؟!.. مدرس !!.. مدرس لابنى الضعيف فى الإنجليزى ....

فقطعت حديثها بقولى :

— صحيح .. صحيح .. هذا من الواجب .

وانصرفت ..

وغبت عنهم مدة ليست طويلة ولكنها لم تكن قصيرة أيضا ..

ثم زرتهم فلم أجد فى المنزل إلا الأم .

وانصرفت ..

وغبت عنهم مدة ليست قصيرة ، ولكنها طويلة نوعا ما .. لكن الغريب فى الأمر أن أحدا لم يسأل عنى ، ولم يستدعنى كما كانوا يفعلون ثم زرتهم ، وكنت فى هذه المرة عازما على أن أعلن خطبتى . لكن الظروف فى المنزل لم تسمح ولا أدرى لماذا . كانت هناك مشاغل منزلية كثيرة فلم تمكنهم من أن يلتفوا حولى كما عودونى منذ زمن طويل وجلست

فى المدخل أتشمم رائحة المكان وسمعت الفتاة فى هذه الأثناء تهدد أخاها بأنها ستشكوه لمدرسه المخصوص وفى هذه اللحظة وحدها استطعت أن أميز الرائحة التى كنت أتشممها منذ وهلة فقد كانت رائحة رجال الإقدام فى طليعة مزاياهم .. ناس لا يطيلون التجارب إلى المدى البعيد



الذى فرضته على نفسي .. ولعبت بمشاعرى غيرة مبهمة قيدتنى حيث كنت فى علاقتى بها . ثم تململت فى مجلسى قليلا .. ثم انصرفت ..

***

استعرضت ذاكرتى هذه الأفكار التى مضى عليها خمس سنوات وأنا واقف أمام الباب أنظر إلى اللافتة الزرقاء المعدنية اللامعة التى تحمل رقم ٨.

وكانت الأوراق تحت إبطى والصبيان لا يزالون يتساءلون .

ثم استجمعت بصرى وتحركت من مكانى داخلا إلى البيت . واعتمدت على السور الخشبى للسلم وأنا صاعد إلى الطبقة الأولى ثم طرقت الباب بالقلم الذى فى يمينى فسمعت فى الداخل صوتا يسأل :

— من ؟

فأجبت :

— أنا مندوب مصلحة الإحصاء .. نحن نقوم بعد السكان يا سيدتى .. فافتحى من فضلك .

ورأيتنى ماثلا أمامها .. أمام الأم .

ومرت فترة من الذهول قبل أن تهمس :

— أنت ؟

ثم تنحت عن الطريق فدخلت .

جلسنا فى المدخل حيث كنا نجلس فى الزمان الخالى . أيام كنت أشم رائحتها فى البيت أو أسمع صوتها وهى فى المطبخ . وأخذنا نشرب القهوة وأشعلت سيجارتى بشهوة وأنا أنظر إلى خطوات الأيام وآثارها على وجه امرأة كادت تكون حماتى لولا أن التجربة طالت فى نظرهم أكثر

من المألوف .

وبعد صمت متأمل ساكن سألتني السيدة :

ــ ألم تتزوج حتى الآن ؟

قلت :

ــ نعم لم أتزوج حتى الآن .

فأخذت من فنجانها رشفة ثم تنفست طويلا وهى تضع فخذا على فخذ ونظرت إلى بعينين فيهما عتاب ، أو شماتة ، أو هما معا . ثم قالت لى :

ــ إن معها ولدين الآن .

وابتسمت فى غرور ، فأجبت :

ــ حفظهما لها الله ..

فعضت على شفتها برفق كأنها تفكر بالنيابة عنى ، ثم ألقت بفنجانها على المنضدة وسألتنى :

ــ ما كان منعك أن تقول كلمة .. كل شىء مضى وراح ، ولكن يلذ لى أن أفهم .. لماذا تلكأت كثيرا ؟ كان يجب أن تفهم أن النساء يفضلن القطار الباكر . هكذا خلقنا ولسنا كالرجال .

ثم ضحكت . أما أنا فقد أخرجت استمارات التعداد وجعلت أكتب فيها أسماء الأسرة وهى تملى علىّ .. لقد غاب عنها أناس منهم من كان يعنينى ، وزاد عليها أناس كلهم لا يعنينى .. خمس سنوات ..!!

ثم قامت الأم لتفتح الباب لطارق وعادت لتأخذ مجلسها إلى جوارى فرأيت فى عينيها بريقا خفق له قلبى ، وفهمت منه أن الطارق شخص

كنت أدخل هذا البيت كثيرا من أجله هو وحده فلما غاب غبت عنه .

كنت فى المنزل رقم ٨ جالسا فى المدخل والأم إلى جانبى . وكان رأس خطيبتى القديمة ظاهرا من أعلى البرافان عند الباب لأنها أطول منه وكانت قدماها ظاهرتين من أسفل لأنه كان مرتفعا عن الأرض .

لم تستطع أن تتقدم ولا أن تتأخر فسمرت فى مكانها خلف الباب .. لم تشأ أن تواجه ذكريات قديمة ألقى القلب حلوها ومرها منذ زمن لأنها تزوجت المدرس ونزحت معه عن القاهرة وهى اليوم فى زيارة .

ظلت واقفة خلف البرافان وجعلت منه فاصلا بينها وبين كل ما فات . خيل إلى وأنا على الكرسى أن الذكريات ثقلت عليها وأن شهقة بكاء ندت منها لكنها مع ذلك لم تتقدم و لم تتأخر .

كدت أقوم لانصرف وأمر بها فى موقفها كما أمر بامرأة لا أعرف من هى ولكنى لم أجرؤ . لكن صوتا صغيرا رقيقا كان لصبى ، نادى على السلم قائلا :

ــ ماما .. ماما ..

فرأيت شبحها من أعلى البرافان ومن أسفله يتحرك إلى الخارج . وسمعت وقع حذائها وهى تهبط راجعة أدراجها .

وكنت فى هذه اللحظة أبادل الأم نظرات خاوية .. فارغة لا تحمل معنى من المعانى .. إلا معنى العجب !!

★ ★ ★

مولود سعيد

كان فى طريقه إلى « المنظرة » التى يسكنها بعد أن انتصف الليل وبعد أن اجتاز إليها ساحة الفناء النشع المظلم الواسع . ثم طرق الباب فلم يفتح له أحد .

ولو أن أحدا غيره كان فى موقفه لارتاع وتوقع شرا ، ولكن ذلك لم يقع فى روعه و لم يلج عليه مداخل نفسه فعاود الطرق بيد مطمئنة هادئة حتى كأنه لا يرقد وراء هذا الباب فى هذه الحجرة أم وثلاثة بنين صغار تداركوا فى الولادة على رأس كل سنتين من غير تخلف ولا توقف كما تتدارك فى الميعاد دقات ساعة مضبوطة .

وأطل الرجل من خصاص الباب فلم ير داخل الحجرة واضحا لأن المصباح المعلق على الحائط يرتجف مشتفا بقية الجاز التى بقيت فيه ، مجاهدا الظلام فلا يخيم على أربعة أشباح تمدد أحدهم على سرير وتمدد ثلاثة على حصير .

ومضت دقائق .. ثم كان الرجل فى داخل الحجرة ماثلا أمام السرير يهز زوجته فى رفق وحنان حتى تستيقظ غير مذعورة . فلما أفاقت فتحت فيه عينين مستغربتين وهى تقول :

ـــ آه .. من ؟ .. أهو أنت .. كيف دخلت ؟..

لقد كانت فى شبه غيبوبة ثم تنهدت تنهد الراحة . أما الزوج فقد بدأ يشرح الموقف :

ـــ هذه هى ميزة أبواب الفقراء يا أم عبده .. هذه هى ميزتها العظيمة .. إنها لا ترد طارقا لأنها غير محكمة الإغلاق فهى من هذه الناحية كأبواب الكرماء لا يتعذر دخوها على أحد .. ها .. ها .. ها .

وتسألين كيف دخلت ؟ ذلك أمر يسير : فرقت بين المصراعين ثم رفعت المزلاج من المصراع الثابت فانفتح الباب .

ثم عاد يقهقه ، ثم استطرد قائلا :

ـــ آه لو عرف اللصوص عن بابنا ذلك العيب .. إذن لكانت كارثة .. سنُسرق .. سنُسرق يا أم عبده .. (يادى المصيبة) .. ها .. ها .. ها .

فاختلط ابتسام زوجته بالألم وهى تتقلب من جنب إلى جنب :

ـــ هل تمزح أو أنت سكران ؟.. إن اللص الذى يدخل علينا لا يخرج إلا بأحد هؤلاء .

ثم أشارت إلى الهياكل المتدرجة فى الطول الممتدة على الحصيرة على مخدة واحدة . قال الزوج :

ـــ لو كانت الست كريمة هانم لصة ما سرقت إلا الأطفال . احمدى الله يا أم عبده على نعمه الجزيلة لأن كريمة هانم على غناها تتمنى أن ترزق ولدا يؤاخى بنتها الوحيدة .

ـــ و لم أخرتك عنا هذه الليلة وأنت تعلم ..

آه .. ألم فى أحشائى .. ألم شديد يا أبو عبده .. هذه هى تباشير الولادة ما فى ذلك شك .. هل أخطأنا فى حساب الأيام ؟

وكان الزوج فى هذه اللحظة جالسا على الأرض يخلع حذاءه

ليدفع به تحت السرير فقال كمن يستدرك على شىء قبل فوات أوانه :

ــ مولود سعيد ، ورزق جديد ..

ثم عاد يرد على السؤال الأول :

ــ أخرتنى كريمة هانم فى المطبخ الليلة لأعد أصنافا من الحلوى لوليمة غد ..

ثم سكت .. ثم جعلت الحامل تتقلب على السرير فوق الحشية الهزيلة والزوج مطرق يفكر فيما سينتابه من نفقات : « حلبة ، عسل ، دجاج ، شمع ، حمص وسودانى » وكله يهون إلا ثمن الدجاج .

وسبح فى أفكار شديدة لم ينتبه منها إلا على يد صغيرة تربت ظهره من خلف فلما التفت ألفى أوسط أبنائه قد استيقظ وجلس يمسح عن عينيه آثار النوم وهو يهمس :

ــ أين هى ؟

ــ من هى يا كمال ؟

ــ الحلويات .. كنت تقول : « الحلويات » .. هل تذكر يا بابا ؟ أين نصيبى .. هات نصيبى منها .

ولكن الأب كان لا يملك فى هذه اللحظة من الحلوى إلا صنفا واحدا هو حلوى « القبلات » فأفاض على ابنه منها شيئا كثيرا ولعل الصبى لم يرتح له لأنه تخلص من ذراعى أبيه وبكى قليلا حتى غلبه النوم .

★ ★ ★

ثم قالت الزوجة وهى لا تزال تتقلب من جنب إلى جنب :

ــ سمعتهم يقولون : إنهم يقدمون للوالدات فى المستشفيات ربع دجاجة كل يوم .

فقال الزوج :

ــ لا قدر الله ... « والنبى تستغفرى » فإنه لا يدخل هناك إلا اللائى تتعسر عليهم الولادة .. ولكن .. ماذا يعنيك من النفقات يا سيدتى ؟!. لا تحملى الهم فالله كفيل بهموم الناس . سآخذ قرضا على مرتبى من الأسرة التى أخدمها .. توكلى على الله !

وارتجف المصباح رجفة أخيرة امتص فيها بقية الجاز من قاعه ثم انطفأ فساد الظلام ونام رب البيت . نام تماما بعد كد يوم طويل . ولكن الزوجة قطعت عليه نومه فنبهته فقام يفتش عن زجاجة الجاز . هناك بين أخلاط من صفيح وورق وزجاج وسقط متاع وآنية كلها مكدسة تحت السرير . وعرف الزوج الزجاجة من رائحتها حين عثرت بها كفه فلما حركها وجدها فارغة فألقى بها على الأرض ثم زحف حتى ألقى برأسه على الوسادة بجوار أولاده الثلاثة وتطرح فى تمدد وفتور يستمع إلى موسيقا الأنين التى تؤنس بها زوجته ظلام الغرفة .

وبكر الصباح فلم يشرق على الدنيا ذلك المولود السعيد فودع الرجل زوجته وزودها بأمنيات سعيدة قبل أن يذهب إلى بيت مخدومه ليعد وليمة الغداء . وقد أوصى ابنه الأكبر أن يذهب إليه بعد ساعة ليبعث معه بالقرض الذى سيأخذه من السادة ثم أوصاه بعد ذلك بأن يمر على جدته لأمه ليشترى للوالدة ما يلزم من الطعام .

ولما التقى أبو عبده بالست كريمة هانم قال لها :

ـــ كان من الجائز جدا أن أتأخر اليوم يا سيدتى لولا ظروف اليوم عندكم . لقد تركت زوجتى تعانى آلام الولادة .

فرددت بوجه لا أثر للعطف فيه :

ـــ أشكرك . فأنت تعرف واجبك دائما .

وأخذت تجيل طرفها فيما حولها بكبرياء كأنها هى التى خلقت كل شىء !

ولما لم تنتج المقدمة نتيجتها بالنسبة للطباخ فلم تسأله الهانم عن الحال ولا عن المال لجأ الرجل إلى أقصر الطرق وأعرض عن اللف والدوران فقال من جديد :

ـــ إن سيدتى تعلم عدد الأنفس .. وعدد الأرغفة التى أشتريتها كل يوم .. وأنا .. وأنا .. أريد قرضا من أجل نفقات الولادة .

ثم سكت وجعل يفرك كفيه ، وكانت ربة البيت قد همت بالمسير لكنها توقفت حتى ألقت إليه بنظرة من فوق كتفها وقالت كمن يرد على إهانة :

ـــ قرض ؟ . (قرض إيه يا أسطى) . ليس هناك قرض ، لا حسن ولا سيىء . أنتم أناس مطالبكم قليلة وسفهكم كثير . لا تحسبون حساب غد أبدا . أما كنت تعلم أيها الرجل أن امرأتك ستلد فى يوم ما حتى تستعد للحادث السعيد فى خلال تسعة شهور كاملة ؟

ثم هزت كتفيها وومضت عيناها ببريق ه إلى عباد الله رزق الله واسترسلت :

— ولكن . لعل الحمل والولادة جاءا فجأة كما تسقط الأمطار . لست أبخل عليك يا أسطى ولكنى أشفق بك . لأن الدين لا يسده إلا الدين ، والقرض يستدعى قرضا جديد . وهذا حرام .. حرام .

وتركته فى مكانه واجتازت البهو فى طريقها إلى شأنها وهى لا تزال تردد كلمة « حرام » بأسف وحسرة كلما خطت أربع خطوات . أما أبو عبده فإنه زايل مكانه قاصدا إلى « البدروم » حيث يجهز بيديه المحرومتين طعام الوليمة .

* * *

و لم تمض ساعة من الزمن حتى توقف على نافذة البدروم التى تحاذى سطح الأرض غلام فى السابعة من عمره حافى القدمين مفتوح الصدر متطلع العينين ، وهز بيديه الصغيرتين شبكة الحديد المقطوعة التى شدت إلى الشباك لتمنع الأيدى وتذود الذباب . ولما أحس الطباخ بابنه هم بأن يهز رأسه بالنفى ليعود أدراجه خالى الوفاض ولكنه لم يطق وكاد الدمع يطفر من عينيه حين تصور انطفاء نور الرجاء على وجه ابنه الباسم .

وبحركة لا دخل للإرادة فيها أخذ الطباخ يقطع إلى ابنه المسافة القائمة دون النافذة ثم مد يده بشىء ملفوف وأشار باليد نفسها بعد أن فرغت مما فيها :

— أسرع .

فما لبث الغلام أن عدا على الطريق وعاد الطباخ إلى ما كان فيه من عمل وتحكم فى تفكير نفسه حتى لا يتدبر مغزى ما عمل ومرت دقائق سمع بعدها وقع حذاء عال يهبط سلم « البدروم » وكانت كريمة هانم هى القادمة لتلقى

نظرة على ما يطبخ لأنها مهتمة بضيوف اليوم ، وسألت الرجل قائلة :

ـــ ألست محتاجا لشيء يا أسطى ؟

فقال دون أن ينظر إليها :

ـــ فيما عدا طلب الصباح ليس هناك ما أحتاج إليه .

فاحمر وجهها من الغيظ وكان هو يرمى إلى ذلك . كان يريد أن يخرجها سريعا حتى لا تحس بما فعل ولكنها أخذت تدور حوله سريعا وتنظر فى كل شيء . ولم يمض وقت طويل حتى ثبتت فيه عينيها سائلة إياه :

ـــ هل الدجاج كثير ؟

ـــ جدا .

ـــ أربع دجاجات كفاية ؟

ـــ وثلاث تكفى ببركة الله .

ـــ لكننا اشترينا اليوم أربعا .

ـــ أعلم ذلك .

ـــ ألا ترى أن فى الإناء ثلاثا فقط ؟

ـــ صحيح يا سيدتى .

ـــ وكيف تعلل هذه الظاهرة الغريبة ؟

ـــ الأمر لا يحتاج إلى تعليل وقد كنت موشكا أن أخبرك به : أن دجاجة منها قد طارت وفرت من خلال النافذة .. من خلال القضبان ، لأن سلك الشبكة الحديدية مقطوع على هذه النافذة كما ترين .

وأشار بيد مرتجفة ونظر بعين زائغة نحو الشباك حيث كانا لايريان

إلا أرجل السابلة وهى تدرج على الرصيف .

وخيم صمت انفجرت بعده ربة البيت بضحكة زلزلت أحشاءه واقتربت رويدا رويدا حيث كان مشغولا بتنظيف الدجاج وأشارت إلى قاع الإناء أمامه بسبابة لا تمس الإناء ، قد طلى ظفرها الطويل بـ « مانوكير » طرابيشى اللون . ونظر الطباخ حيث تشير فرأى ما ضل منه صوابه .. رأى فى إناء التنظيف رأس الدجاجة المسروقة فكان فى الوعاء ثلاث دجاجات وأربعة رءوس !

* * *

ثم انقضى اليوم حافلا بالسراء والضراء .

وعلى كل حال فقد كان فى بيت الخادم دجاج من نفس النوع الذى كان فى بيت المخدوم .

وعاد الرجل إلى بيته ليستقبل المولود .

كان غلاما فقبله وأسال على وجهه دمعتين كبيرتين سأله بهما :

ــ ألا ترى أن فى الإناء ثلاثا فقط ؟

ثم وضعت الدجاجة المطهوة تفوح منها رائحة الكمون مختلطة برائحة المشاكل . وسأل فى التو لغاب ثلاثة أطفال كانوا قد منحوا الأرجل والأجنحة وسأل أحدهم عن الرأس الغائب فلم يعثروا به . وتطلعوا بتشبث وإصرار دفع أباهم إلى أن يصحبهم فى نزهة قصيرة .

ولما تقدم الليل هجعت الأطفال وعادت الحماة إلى بيتها وخلا الزوج بامرأته فسألته تستوضح الغامض :

ــ هل أخذت قرضا يا أبو عبده ؟

ـــ لا .. مع الأسف !!

ـــ إذن ومن أين هذه الدجاجة ؟... لقد كانت بلا رأس .

فضحك أسفا :

ـــ وأنت أيضا بلا رأس ما دمت لم تفهمى الموقف . على أن كريمة هانم فطنت منذ أول وهلة من دخولها المطبخ إلى أن الرأس كان بغير دجاجة !!

قالت الزوجة :

ـــ سرقت ؟!

ثم وضعت كفها على بطنها كأنها تحس مغصا . فقال الزوج :

ـــ لا تحزنى .. إنها حلال ؟!

ـــ مسروقة وحلال ؟!

ـــ لقد خصم ثمنها منى .. وليس هذا فقط بل وأنذرت بانتهاء عملى عند الأسرة ابتداء من أول الشهر القادم !!

* * *

كانت الزوجة متربعة فى سريرها تحمل الوليد الجديد فى حجرها ، فأخذت تفكر ماذا تسميه ؟! وأبرزت له ثديها يمتصه فبدا كأنه غلافة كوز من الذرة ، أبيض .. مستطيل .. جاف . لكنها لم تستطع أن تحول وجهها عن



وطال تأملها حتى سقطت من عينيها دمعتان كبيرتان

وجهه الذى لا يزال محتقنا لحداثة الولادة . ثم جعلت تتأمل فيه . وطال تأملها حتى سقطت من عينيها دمعتان كبيرتان كاللتين سقطتا من عينى أبيه أول الليل . ولعلها كانت تسأل بهما وليدها :

ــ أحقا أنت مولود سعيد .. ولك رزق جديد ؟!

أما الأب فقد كان فى هذه اللحظة يكبر لصلاة العشاء .

★ ★ ★

ابن العمة

« ما التاريخ إلا صنم نصنعه بإيدينا ثم نعبده » .

ملت عليه بصفحة وجهى ، وقلت وعلى شفتى ابتسامة ملؤها تأثر « وهكذا سيكتب التاريخ اسمك يا صديقى — بعد عمر طويل — فى سجل الخالدين ! » .

فقطب فى سريره وهو راقد ، وقرأت فى أسارير وجهه آيات من الألم المكبوت ، ثم واجهنى بعينين فيهما رضا وشجاعة واستسلام ، ووضع يده على جبهته فوارت شيئا من الضمائد التى لف بها رأسه ، ثم أسبل جفنيه وقطب وجهه ، كأنما يذكر شيئا بعيدا . وأخيرا اتجه إلىّ باهتمام وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة فيها كثير من السخرية ، وقال :

— التاريخ ؟

قلت :

— نعم .. التاريخ . ماذا قال فى هذا !

فقال :

— لا شىء فيه ، إلا صنم نصنعه بأيدينا ثم نعبده ، وتكتبه الأهواء ثم تسجد له العقول . المجد الحقيقى يا صديقى فى العواطف على مر الدهور ، وقد حذفها المضللون من شريط الزمن .

قلت :

ـــ ماذا تعنى ؟

قال :

ـــ أعنى ما سأقصه عليك ...

* * *

« كان ذلك فى أواخر يونيو سنة ١٩٠٦ حين بدا الجلادون فى تنفيذ ما قضت به المحكمة المخصوصة ـــ من جلد وإعدام ـــ على عدد من رجال « دنشواى » لأنهم تعرضوا لضباط الإنجليز وهم يصيدون الحمام ، وكان اليوم قائظا ، والشمس قد توسطت السماء ، لأن المنتقمين أرادوا أن تكون ساعة تنفيذ الحكم هى نفس الساعة التى وقع فيها الاعتداء المزعوم على الكابتن « بول » حين أطلق بندقيته على حمامتين سقطتا على أكداس القمح . وكانت هناك امرأة على النورج تسوق بقرتها فى فتور وكسل واطمئنان ، فارتاعت لما رأت إنجليزيا وبندقيته .. ثم نارا تشتعل فى قمحها وقوت عامها . فصرخت مولولة .. وأطلق الكابتن النار عليها من جديد فأصيبت وسقطت فاقدة الوعى . وتجمهر الأهلون رجالا ونساء ، وأطفالا كانوا يلعبون تحت ظلال الشجر ،ليحولوا بين الضابط وبين بندقيته ، حتى لا يقتل أحدا ، وانتهى المشهد بأن ذعر الكابتن ، وأخذ يعدو فى هذا القيظ حتى بعد عن القرية ثلاثة عشر كيلو مترا ، وكان برأسه جرح غير بالغ .. لكن الجرى والحر أفسداه حتى جعلا منه سببا لموته .

« وفى الجرن حيث سقطت الحمامتان اللتان قصدهما الكابتن بالصيد ، نصبت مشانق ، وضربت خيام ، ودعى كثير من أعيان القطر ليشهدوا درسا فى الانتقام لا تنساه الأجيال . ووقف الحرس الإنجليزى بخيله وسلاحه .

والتف أهل القرية حول الجرن يودعون الأحباب على عتبات الاستشهاد بدموع حرى وإشارة خرساء .

« ونفخ أحد الجنود فى البوق إيذانا بابتداء التنفيذ .. فارتجف آلاف من القلوب والأجساد ، وصعد أربعة رجال سلم المشنقة حيث أسلموا رقابهم للحبال ونفوسهم لله . ونقلت جثثهم إلى الخيام للغسل والتكفين ، ثم تعالت أصوات عشرات من الرجال يصرخون من سوط الجلاد . وسجل المستعمر الغاشم لنفسه بطشا جديدا على نفوس الأبرياء .

« وقبل أن ينفض الجمع ويفارق الشرود الألباب ، حوم سرب من حمام دنشواى فى سماء الجرن ينخفض تارة ، ويرتفع تارة ، ثم سقطت حمامتان منه على ذروة إحدى المشانق ، فأطلق رئيس الحرس عليهما النار من بندقيته فقهقه الجنود ، وفزع الناس » .

ثم سكت الجريح عن الحديث قليلا ، ريثما يرتشف جرعة من الماء .. وتحسس بيده الضمادات التى على بطنه ، وقال يكمل الحديث :

« كان فى القرية فى ذلك الحين فتى فى السابعة عشرة من عمره ، قوى البنيان سمهرى العود . وكان ذاهبا لبعض شأنه يوم وقعت هذه الحادثة المشئومة . ولما رأى ما يبدو على وجه الكابتن بول من شر أكيد ضربه بحجر فى مؤخر رأسه ليستطيع استخلاص البندقية من يده . ولم يكن هذا الشاب إلا ابن العمدة ووحيده ووارث ثروته ، وكان طالبا يقضى إجازة الصيف ، وقد أتم دراسته الثانوية فى ذلك العام .



حين أطلق رصاص بندقيتـه على
حمامتين سقطتا على أكداس القمح

«وعم القرية هرج ومرج بعد إصابة الكابتن واهتمام أولى الأمر بالأمر . ولم يدرك العمدة البطاش عظم الكارثة .. فقد ألقى التهمة على عميد أسرة معادية له منازعة إياه فى السلطان ، وعلى بعض أفرادها كذلك ، وكانت الفتنة عظيمة أفقدت كل حليم لبه ، فلم يستطع أحد للشر دفعا .

وسجى الليل ، ونامت عيون على ذعر ، وسهرت عيون تفكر فيما عسى أن يحمله الصباح .. لأن دنشواى سادها فى ذلك الحين ما كان قد ساد فرنسا أيام عهد الإرهاب حين جرى على الألسن مثل يقول : « سق عدوك إلى المقصلة قبل أن يسوقك إليها » . فكانت أقل الوشايات عند العمدة تدخل أى رجل فى عداد المتهمين الذين جعل مسجد القرية لهم معتقلا .

« نعم .. سجى الليل ، وخلا الولد بأبيه وكان الخفراء قد جروه جرا إلى بيته بعد الحادث ، فقال لأبيه :

— لعلك تعلم يا أبى أننى أنا الذى ضربت الضابط الصياد .

فقال العمدة متجاهلا :

— لا علم لى بذلك .. احذر يا بنى أن يعلم أحد بهذا النبأ .

— إذن فسينال العقاب غير مرتكب الجريرة ، وهذا ما لا يتحمله ضميرى .

— وماذا تريد أن تفعل أيها المجنون ، هل يخوض النار أحد بمحض إرادته ؟

— أصغ إلى يا أبى .. هذا شىء لا مجال للنقاش فيه ، ولك الآن أن تختار أحد أمرين : فإما أن تسلمنى للعقاب بوصفك ممثل الحكومة فى هذه القرية ، وإما أن أسلم نفسى بنفسى .

وهنا ثار العمدة ثورة الجنون ، فأخذ يضرب صدر ولده بقبضة يده تارة ، ويلطم وجهه تارة أخرى ، ثم يميل عليه يقبله مرة ويحتضنه مرة ، ويدفعه عنه فى قسوة وعنف مرة أخرى ، ودموعه تسيل على لحيته . ولما أفاق قليلا ، قال له :

ــ أنت وحيدى ووارث اسمى وثروتى . فكيف أسلمك للموت ؟ ألا ترحم الأبوة والشيخوخة والدموع ؟

فقال الولد بصوت خافت كأنه صادر من أعماق قبر :

ــ وأنت يا أبى .. ألا ترحم دموعا فى غد ستسيل ، ولو تجمعت لجرت جدولا ، ثم ألا ترحم دماء فى غد ستسفك ، ولو تجمعت لملأت غديرا ؟

* * *

مضى على هذا الحديث شهر ، ونفذت أحكام « محكمة التفتيش » فى القرن العشرين ، وفتحت قبور وسجون ، وأغلقت أبواب بيوت و لم يظهر ابن العمدة فى القرية وقال أبوه :

ــ إنه مريض فى إحدى المدن ويحتاج إلى علاج طويل .

وانقسم أهل دنشواى فى موقفهم من ابن العمدة عقب الحادث ثلاث فرق ، فرقة الإمعات الذين لا خطر عندهم ، وفرقة الأحباب المتملقين ، وهؤلاء لا خطر عندهم كذلك ، أما الأعداء ، فقد وسعتهم حيلة العمدة ، وسرعان ما أشعلت فى قمحه النار ثم اتهموا فيها ، وقوى الاتهام أنهم إنما يريدون أن ينتقموا لاتهام ذويهم فى حادث الحمام .

قال صديقى :

يبدو عليك أنك تتلهف إلى معرفة حلقة مفقودة فى حديثى ، وهى : إلى أين ذهب ابن العمدة ؟

وأقول :

— إنه لم يذهب . ولكنه ذهب به . حمل بالليل مكتوفا إلى حيث أخفاه أبوه فى عزبة بعيدة حتى لا يخوض النار بقدميه . و لم يكن الحكم فى قضية الحمام حكما منطقيا عادلا يقصد به تقديم المذنب بنفسه لينال الجزاء كما هى سنة العقاب وإنما كانت فكرة الإرهاب والانتقام تسيطر على عقول الحاكمين كأنهم أرادوا أن يخوفوا الناس ببشاعة الدم ، فأراقوا دم من صادفوه .

ثم شحب لون محدثى قليلا حتى خيل إلى أن عينيه غارتا أكثر من قبل ، وتلوى فى فراشه وقال :

— وقد عاش الشاب يئن تحت عبء الضمير ثلاثة عشر عاما ثم أتم دراسته فى الحقوق واحترف المحاماة . ولعل لحادث الحمام دخلا كبيرا فى اختياره المهنة .

❊ ❊ ❊

ونحن الآن فى سنة ١٩١٩ ، ومصر تغلى كلها فى أتون من الثورة !! ثم سكت واندفع يقول كأنه خطيب :

— وقد قاد ابن العمدة الجماهير بروح قوية ، وحمل رأسه على كفيه ، وهو معتقد أنه سيموت ، ولكن موته كالصلاة التى تقضى ، على حين كان يجب أن تؤدى فى وقتها المحدود .

لم يرهبه رصاص الإنجليز فى شوارع المدينة . وكم من سلاح استولى

عليه منهم بيده العزلاء وقلبه المسلح باليقين والعبرة ، ثم أطلقه على عدوه ثم أكب عليه ليقول له في أذنه والدم ينزف منه : « قتلتك حمامة من دنشواى » وهو لا يعلم ـــ وقد لا تعلم أنت كذلك ـــ كم كانت هذه الكلمة تشفى غلة صدره !

قلت له مبهوتا :

ـــ يخيل إلى أنك تقص على قصتك .

قال وقد هدأت ريحه وانبسطت أساريره :

ـــ نعم هو كذلك .

قلت :

ـــ وكيف تخفى عنى حتى الآن اسم موطنك ؟

قال :

ـــ كان ذلك عورة من عوراتى التى سترتها عن الأصدقاء .. وأنا اليوم على عتبة الآخرة بعد أن أصابنى رصاص الإنجليز وأعترف لك بكل ما يؤلم كما يعترف المسيحى أمام القسيس . أما أبى فسيذيقه الله الثكل .

ومضت أيام قلائل سرنا بعدها شوطا قصيرا إلى حيث وارينا البطل التراب وهو فى مقتبل الحياة ، وعدت وأنا أذكر قوله الساخر :

ـــ التاريخ ؟ . ما التاريخ إلا صنم نصنعه بأيدينا ثم نعبده !!

★ ★ ★

عائد إلى القرية

كان عم « حسب الله » يعلم حق العلم أن أرض الله واسعة جدا ولكن علمه بهذا الأمر كان مبهما غامضا فيه خطأ كثير ، كأن سعة الأرض فى ذهنه هى أن الباشا يمتلك منها ألفا وأنه (خولى) عنده يطعمه إن شاء ويجيعه إن شاء . وهناك معنى آخر لسعة الأرض كان فى ذهن عم « حسب الله » هو أن خروجه من عزبة الباشا سيؤدى به حتما إلى الهلاك لأنه سيضل الطريق فى أرض الله الواسعة كما تضل الإبرة فى مخزن التبن فلا يعرف أين مكانه من العالم .

لذلك كان هذا الرجل مثالا للطاعة فى عزبة الباشا وكان المالك وآل المالك ينظرون إليه كما ينظر الحراث إلى ثورة الهادىء فهو يحبه ويعطف عليه لكنه على كل حال ثور من الثيران لا يرتفع فى نظره إلى درجة الإنسان . وقضى الخولى فى خدمة العزبة زهرة عمره فلم يبق إلا سنوات يعلم الله عددها بعد أن بلغ سن الخامسة والخمسين . وكان كثير الصلاة يحفظ القرآن ولا يعرف إلا الحقل والمصلى . ينظر إليه الفلاحون من أنداده فى العزبة الكبرى على أنه رجل سعيد لأنه مستور الحال : عنده جلبابان وحذاء قديم يلبسه فى المناسبات العظيمة ولا يعلم مصدره الأصلى لأنه ضيق يفضل عليه الحفاء وأشواك الطريق فى كثير من الأحيان . وعنده أيضا كمية من الذرة حتى تأتى الذرة الجديدة . وعنده جاموسة شرك ، وله بنتان تعملان فى أرض الباشا بعدة قروش فى موسم الحصاد .

وولد .. هو سر السعادة العظمى فى نفس عم « حسب الله » . جاءه على على شوق فأدخله المدرسة الأولية فأظهر استعدادا طيبا للتعليم ثم دارت الأيام فوافق الباشا فى ساعة من ساعات سعده التى يوزع فيها النعم على عباد الله — وافق على أن يرحل التلميذ « عطية حسب الله » إلى القاهرة ليتلقى قسطا من الثقافة فى مدرسة المعلمين .

وتأكد الخولى وهو يودع ابنه يوم سفره إلى العاصمة أن أرض الله واسعة جدا وأن خلف أشجار الجزورين القائمة على حدود الأرض على هيئة إطار مستطيل بلادا أخرى وناسا آخرين تختلف حياتهم عن الحياة فى عزبة الباشا . ناس كثيرون غير حفاة ولا عراة ولا منتفخى البطون من تمدد الطحال ولا متشققى الأيدى ولكنهم نظاف لطاف . غير أن ذلك كله لم يحمل الخولى على أن يفكر فى الرحيل عن العزبة لأنها مسقط رأسه .. ووطنه الصغير .. فهو عزيز عليه لأنه قطعة من الوطن الكبير الغالى . ولأنه بعد ذلك كله لا يملك شيئا يعينه على الهجرة والبحث والتنقيب عن أرض جديدة ، فرزقه مربوط بمطلع الشمس .. يوم بيوم ، والغد رزقه عند الله .

لكن سعادة الخولى بلغت غايتها بعد بضع سنين يوم نال ابنه شهادة تؤهله لأن يكون مدرسا فى مدارس المرحلة الأولى . وأخذ المدرس الشاب يستيقظ كل يوم فى الصباح الباكر ليمشى كيلومترات على قدميه حتى يبلغ المدرسة . لكن حياة هذه الأسرة أصبحت موضع حسد الفلاحين من أهل العزبة لأن المجد والعز الذى ناله عم « حسب الله » لم يكن يخطر لأحد على بال .

***

ولو أن بعض الناس كان يستمع إلى نقاش هذه الأسرة حين يجن الليل ويقفل عليها كوخها وتلتف حول أقداح الشاى لأدرك أن وراء الستار متاعب غير قليلة .

فهناك خلاف بين « عطية » وأبيه على مسائل عدة منها مسألة أختيه اللتين تعملان فى الحقل فقد أصبح الابن يرى أنهم اليوم فى غير حاجة إلى الدريهمات التى تدخل إلى بيتهم من شغل فتاتين جميلتين تحت أشعة الشمس فى وهج الصيف وتحت قطرات المطر فى زمهرير الشتاء . وفضلا عن ذلك فإن آل الباشا من الشبان لا يحسنون معاملة أمثالهن فى الحقول . وكان عم « حسب الله » يرى أن ابنه قد أصبح غافلا لا يدرك نتائج ما يقترح بل وكأنه لا يفهم أن منع الفتاتين عن العمل فى أرض العزبة سيعتبره المالكون تقليلا من الأيدى العاملة يؤدى بهم يوما إلى بوار الزراعة ، وفى هذا الخطر على (الخولى) ما فيه .

وهناك خلاف آخر بين « عطية » وأبيه على ما يبديه الفلاحون أمثاله فى هذه الأرض من القناعة والرضا بأجور لا تكفل لأحد أتفه مستوى يعيش فيه إنسان ، ثم يقول عطية : « ولولا عرق أمثالك ما اخضرت أرضهم ولا أخرجت ذهبا ولا فضة . فيدمدم الأب فى خوف وجزع ويحذر ابنه من عواقب الأمور . فلو سمعه أحد من أسرة الباشا لأضحى الجزاء عاجلا قاسيا مريرا . أما الأم فإنها كانت تنقل طرفها بين ابنها وزوجها ولا تفعل شيئا أكثر من أن تهدئ حدة الذى يثور .

***

وأخذت الأيام تدور فعرضت أسرة عم « حسب الله » لتجربة جديدة كما عرضت المالك الكبير لنفس هذه التجربة ، وكان ذلك حين حل موسم الانتخابات لمجلس النواب وقد كان يحل من قبل فلا يعبأ به الباشا . كان ينجح دائما بالتزكية لأن الأرض أرضه والسكان عبيده فلا يستطيع أحد أن يدخل عليه معقله وإن استطاع فلن يقدر فلاح على أن يجهر برأى فى غير مصلحة الباشا .

ولكن الحوادث فى هذا الموسم جرت على غير ما يرام وهبت الريح فى اتجاه لا يوائم شراع المالك ، فلم ينجح بالتزكية بل نازعه فى هذه الدائرة أحد الملاك القريبين منه لعداوة طرأت بين الأسرتين حملته على أن يدخل العرين . وضج الناس مستغربين وبدأ كل فريق يستعد للمعركة وأخذ كل يتنبأ بالنتيجة التى تريح قلبه وتناسب ما يتمناه حتى أتى اليوم الأخير ودنت الساعة وأخذت سيارات اللورى تقطع الطرقات ليعبأ فيها الفلاحون بالقهر والقوة فيساقوا إلى مقر اللجنة سوقا لا رأى لهم فيه ولا خيار واهتزت أرجاء الريف الهادئة بـ « يحيا » و « يسقط » خارجة من الحناجر لا من القلوب من الصباح الباكر حتى وقت الغروب .. ثم وقعت الكارثة بالنسبة للباشا فقد فاز منافسه الجديد .

واجتمع الآل والأصحاب بعد يومين من المعركة ليتلمسوا أسباب فشل أطاش عقولهم وأضل صوابهم وليعرفوا العدو من الصديق والمنافق من المخلص فتبين لهم عند البحث والاستقصاء أن المدعو « عطية حسب الله » لم يذهب إلى مقر اللجنة و لم يصوت لمصلحة الباشا . فثار شباب الأسرة وهاجوا وماجوا وهالهم أن يخدش الشرف الرفيع . واستدعى

المدرس الشاب ليحاسب على الخطيئة فلما مثل بين أيديهم جابهوه بالأمر قائلين :

ـــ كيف تجرأت يا ابن عم « حسب الله » على ألا تعطى صوتك للباشا .

فأجابهم بهدوء وثقة :

ـــ لقد ظننتكم أول الأمر ستتهموننى بأننى أعطيت صوتى لمنافسكم الجديد .

فقال أحدهم :

ـــ وهل تظن أن هناك فرقا بين الجريمتين ؟

فأجاب « عطية » :

ـــ نعم هناك فرق لأن احترامى لشخص الباشا شيء وإعطاء رأيى أمام صندوق الانتخاب شيء آخر ، وإذا كان بعض الناس لا يستطيعون إبداء رأيهم فى الآخرين ، فلا أقل من أن يتركوا آمنين إذا احتفظوا بآرائهم فيهم .

ولم يكن « عطية حسب الله » ليلتئذ يعلم أنه أثار على نفسه عشا من « الضبابير » فلقد عير بأنه فقير وبأنه ابن الخولى ، وبأنه تربى على فتات الرجل الذى احتفظ لنفسه برأيه فيه . ثم ختمت الموقعة بلطمة حارة من كف أحدهم جعلته ينفض عنه آثار الذهول .

*** *** ***

وكانت هذه الحادثة بداية حياة جديدة أيقن فيها عم « حسب الله » أن أرض الله واسعة جدا . فلم ينقض أسبوعان حتى كانت الأسرة تسير قبل مشرق الشمس على الطريق المترب الخارج من العزبة .. وكانت الأم تذرف الدموع وبنتاها كذلك ويرجعن المأساة إلى عيون الناس ولعلهن كن يلمن « عطية » فى نفوسهن ولكنهن لم يجرؤن على أن يقلن شيئا .

أما عم « حسب الله » فكانت شفتاه تهمسان بآيات من القرآن و لم يكن معهم دواب ولا أحمال تحتاج إلى دواب . كان كل فرد من الأفراد يحمل قطعة من المتاع الحقير الذى تملكه الأسرة وقد خص « عطية » نفسه بأثقل حمل فيه لأنه السبب المباشر فى وقوع الكارثة .

وكان الأب يتنهد بين فترة وفترة . أما النساء فإنهن لم يكففن عن البكاء وكن يتلفتن إلى الوراء كلما سرن شوطا ، لكن « عطية » لم يتلفت لأنه كان معتقدا أنه مهاجر من دار ذل إلى مكان جديد ربما أكرمت فيه الإنسانية ولو أنهم خرجوا بعدما صودر القوت والدجاج حتى ونصف الجاموسة الذى كانوا يملكونه .

وإلى قرية تبعد خمسين كيلو عن موطن الذل نقل « عطية » مدرسا وأقامت معه أسرته وعاشوا جميعا على مرتبه الضئيل حتى قيض الله لأبيه عملا يناسب شيخوخته فاستأنفوا حياة كدح وجهاد لا أمان فيها ولا طمأنينة ولا ضمان .

ومنذ يوم الرحيل عرف عم « حسب الله » أن أرض الله واسعة جدا ، وانقضى عليه عام حتى كان فجر إحدى الليالى حين أيقظ الوالد ابنه وهو يقول له :

ـــ قم يا « عطية » .. ألا زلت نائما حتى الآن ؟.. قم صل يا بنى .

فلما مسح ابنه عن عينيه ثقل الكرى قال له أبوه :

ـــ اسمع يا ولدى لقد رأيت فى منامى عجبا .. رأيت أننى قائم فى المحراب أصلى فى تضرع وتبتل وخشوع وكنت أقرأ فى صلاتى هذه الآية التى أحفظها : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق . لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ﴾ ثم استيقظت بقلب لا أثر فيه للحزن على ما مضى .

فقال ابنه :

ـــ لست أدرى شيئا عن الأحلام يا أبى ولكننى أعلم أن هذه الآيات إنما نزلت قبل فتح مكة . « بشر الله رسوله الكريم بالفتح » ودخل وطنه الأول بعد ذلك منتصرا عزيزا .

ثم ضحك قائلا :

ـــ وإن صدقت رؤياك عدنا ثانيا إلى عزبة الباشا .. ولكن قل لى يا أبى : كيف يكون هذا ؟

* * *

لكن الأيام بدأت تحقق حلم عم « حسب الله » .

ولم يكن هذا الحلم يخصه وحده ولكنه كان حلم الملايين . أجل الملايين من الفلاحين الذين كان الأثرياء يحولون حبات عرقهم إلى ذهب وفضة ثم يقذفون بها فى البحر .

بدأت رؤيا عم « حسب الله » تتحقق يوم ثار الشعب ثورته العاقلة المنظمة فنحى السد عن طريق الإصلاح . وبدأت أحلام الملايين تتحقق يوم



وإن صدقت رؤياك عدنا إلى عزبة الباشا

أصدر أبناء الشعب قانون تحديد الملكية فكبلوا الغول العظيم وقيدوه وأحس الشعب بأنه حر وأنه طليق وأن فى مقدوره أن يمشى فى طريق الإصلاح لا يقف ولا يتلفت ولا يخشى خيانة ولا غدرا .

واحتضن عم « حسب الله » فى وطنه النائى ابنه وجعل يقبله وعيناه مغرورقتان بالدموع بعدما رأى طلائع الفجر وبشائر النور فقال الولد لأبيه :

— ها أنت ذا يا أبى قد عشت حتى رأيت أرض الله يمشى عليها الناس أحرارا لا سادة فيهم ولا عبيد كلهم عباد لخالق الأرض .

ومنذ ذلك التاريخ وأسرة الخولى تحس راحة وطمأنينة وسعدا لأنها ستعود إلى القرية مرة أخرى ، وستدخل الأرض التى طردت منها وهى تحس بكرامة الإنسان الذى يزرع ما يأكل ويملك ما يزرع !

★ ★ ★

فتحة باب

كانت نسمات الخريف تشق طريقها بين أوراق الشجر فى سرعة رعناء ، فتحدث خشخشة هى كل ما يقلق سكون الليل فى هذا الحى الهادىء ، والنوافذ مغلقة كلها ، ينام من ورائها شقى وسعيد ، لأن الليل قد تقدمت خطاه نحو الصباح ، والبحر لا يزال ساهرا ينبئ عن يقظته بضجيج أمواجه التى تتكسر على سوره الصخرى ، والمصابيح واهنة ضعيفة ترسل على الأرض نورا خافتا ، ينعكس جزء منه على صفحة الماء إلى بعد قريب ثم ترى البحر من ورائه مظلما رهيبا غير محدود ، كأنه جوف كهف عظيم .

وكانت هناك همهمة أشبه بصلاة أو دعاء ، يهمس بها رجل فى ملابس نومه ، تربع على السور ، ووجهه إلى الماء ، وعيناه تجولان فى بعده المظلم . ولم تكن هذه الصلاة فى تلك البقعة أول شىء عمله الرجل بعد أن ترك بيته ووصل إلى هذا المكان ، بل لقد مضى عليه فى موقفه هذا ربع ساعة أو يزيد .

وكان ما عمله أول شىء ، حين جلس على السور أن نظر إلى كل ما حوله ، ثم مد رجليه نحو الماء وترك نفسه ليهوى ، ولم يبق بينه وبين أن يصافح لجة الموت إلا أن يجعل كفيه تتركان البناء ، لكنه تذكر شيئا نسيه ، فتراجع حتى عاد إلى مجلسه . نعم تذكر شيئا ذا بال ، ما كان ينبغى له أن يقدم على الموت دون أن يقضيه . فقد جلس يدعو ويبتهل

فترة من الزمن ، ثم أدلى رجليه نحو الماء من جديد وما لبث أن تراجع لأنه ذكر فى هذه المرة شيئين لا شيئا واحدا : ذكر أنه لم يملأ عينيه تماما من جمال الدنيا ، و لم يأخذ من هوائها نفسا طويلا قد يمد فى حياته تحت الماء إلى بضع ثوان ، أما الشيء الآخر فهو أن دعاءه كان قصيرا . وإذا كان حريصا على أن يملأ صدره بالهواء فما أجدره بأن يكون أشد حرصا على أن يسوق أمامه إلى العالم الثانى ذخيرة من صلاة أو دعاء ومن أجل ذلك استغرق فى ابتهاله ، وامتد استغراقه فيما يدعو به ، حتى كاد ينسيه ما جاء من أجله . ولما أفاق قهقه فى الظلام قهقهة غريبة ، لم تضحك معها قسمات وجهه لأن ظلال الموت كانت مطبقة عليه ، وقال بعد أن فرغ من الضحك :

— ما جئت إلى هنا لأتعبد ، وإنما جئت من أجل أن أموت .. ألا فلأعجل قبل أن تفتر العزيمة .

سرعان ما أدلى رجليه نحو الماء .

***

صر فى هذه الليلة باب مشرف (بلكونة) واندفع ، وهو مشرف فى أحد البيوت المطلة على البحر ، قريب من الأرض ، خارج قليلا إلى الشارع ، وعليه حاجز من الحديد لا يكاد يرتفع عن قامة الواقف ، ثم ظهر فيه شبح طويل هزيل ، وقد وضع يده على جنبه الأيسر كأنما يعانى ألما . وما هى إلا برهة حتى تسلق الشبح الحديد . ثم تعلق به ونزل إلى الشارع ، وأخذ يعدو نحو البحر فى حركات مترنحة سريعة ، كأنه يخف إلى نجدة ملهوف .وما أن وصل إلى سور البحر حتى انكفأ إلى جانبه خائر القوى لاهث الأنفاس ، وجعل

يئن ويتلوى ثم بدا له أن يقف ليتخذ من السور مقعدا ، فأحس كأن يدا تسنده ، والتفت فإذا رجل واقف من ورائه ممسك عاتقه برفق وهو يقول له : ماذا تبغى أيها الصديق ؟

كان مضطرب النبرات ، متعثر اللسان ، فلم يشك المريض فى أنه سكران ولكن ما لبث ظنه أن زال حين انتبه إلى أن المتكلم فى ملابس نومه ، وحين لم يشم من فمه رائحة الخمر . فقال له :

— تسألنى ماذا أبتغى ؟ عاونى أولا حتى أجلس على السور . وما أن عاونه فأجلسه حتى سأله المريض بصوت مبهور :

— ومن أين أتيت بحق السماء ؟ إن هذا الأمر عجاب .

— جئت أتمتع بنسيم البحر .

— أتتمتع بنسيم البحر بعد منتصف الليل ، وفى فصل الخريف ؟

— لا . بل قل لى ما بالك أنت ؟ فقد رأيتك تثب إلى الشارع فى لحظة كانت حاسمة فى حياتى .

فلم يجب ولكنه سأله :

— حاسمة ؟ علام كنت مقدما يا ترى ؟

— على الانتحار .

فضحك المريض وقال :

— وشرعت فعلا فيه ؟

— بغير شك .

فاستخلص المريض سؤاله من بين ضحكة طويلة فقال :



ولكن ما لبث ظنه أن زال حين انتبه
إلى أن المتكلم فى ملابس نومه ..

(النافذة الغربية)

ـــ إذن فماذا حولك أيها الشجاع ؟!

ـــ شيء كان لا بد أن أنتبه إليه ، شيء من الدنيا التي أودعها : سمعت بابا يفتح في البيوت القريبة ، فدفعني حب الاستطلاع إلى أن أرى ماذا هناك . نعم يا صاحبي حب الاستطلاع ، أترى غرابة فيما أقول ؟!

فأجابه ساخرا :

ـــ ولا يزال فيك شيء من غرائز الأحياء ؟! إذن فلن تنتحر !

ـــ لا لا ، بل أنا مصمم .

ـــ نحن إذن زميلان في الرحلة ، لقد هد مرض السرطان قواي واستبد بمعدتي ولم تعد الجرع المسكنة تقوى على تخديري ، فأكلتني الآلام ، هلم يا صديقي ؟

ـــ حسن .. هلم قبل أن يتحول العزم ، فقد أخذت الساعة من الدنيا كل ما أشتهي منها ، وتمليت جمالها للمرة الأخيرة ، ولولا فضولي حين سمعت فتحة الباب لكنت الآن في عالم الأموات .

ـــ أجل فتحة الباب !! فتحة باب في الدنيا تردنا ثانيا على أعقابنا إليها .

ثم جلس الأول إلى جانبه على السور يشرح له كيف يجب أن يهويا معا إلى الماء ويقول : ليمسك كل منا بتلابيب صاحبه ، ثم ليأت بحركة عنيفة دافعا نفسه وزميله نحو الماء . لا . لن ننزل أرجلنا أولا ، فهذه طريقة غير سليمة ، ولا يجب أن ننظر نحو الظلام المخيف الذي يبدو عند نهاية البحر ، لماذا لا ننظر إلى هذا الجزء المضيء من الماء ؟! ولكن خير لنا ألا ننظر إلى شيء . لنغمض أعيننا كأننا .. أسامع أنت ما أقول ؟ هيا .

فأمسك كل بتلابيب صاحبه ، وما لبث المريض أن استرسل فى البكاء . قال لصاحبه :

ـــ أليس لك فى الحياة أرب قبل أن نغوص ؟! البحر مخيف ولكن الحياة لا راحة فيها ، وقد قضيت منها حاجاتى . أجبنى فأنا أريد أن أبرىء ذمتى نحوك ، فأنت فيما يظهر لى ليس يشقيك فيها إلا المرض .

ـــ سعيد بكل شىء .. أجل بكل شىء .. الصحة .

ـــ وأنا شقى بكل شىء .. أجل بكل شىء .. إلا .. الصحة . هلم .. استعد .. قل لى أخيرا فلن أسألك بعد ذلك : أليس لك فيها من أرب ؟

ـــ ذكرتنى والله .. فإننى لم أقبل أحدا منهم قبل خروجى !

ـــ أخشى أن تعود إلى هناك فيفتر عزمك ، وعلى كل فلا يهمنى أن تعدل ، فأنا منتحر .. منتحر .

ـــ لا تخف فلن أتخلف عنك ، وأرجو أن تعاوننى على تسلق الشرف لأقبل زوجى وولدى وهما غارقان فى الأحلام .. ثم أعود .. لابد من قبلة لولدى العزيز ، فغدا عيد ميلاده !!

* * *

ما لبث المنزل بعد قليل أن سطعت فيه الأنوار ، فابتسم الجالس على السور ، ثم نزل متجها إلى المشرف كأنه فراش جذبته النار ، أو كأن ضوء الحياة غلب على ظلمة الموت . وماكاد يقترب حتى أطل الرجل وزوجته ورأياه . فقالت له السيدة وهى ترتجف :

ـــ أرجوك .. أرجوك أن تصعد إلينا .

فتحول سريعا نحو باب البيت كأنما جذبه مغناطيس .

آه .. إنه لم يمت ، وآية ذلك أنه يسمع نداء الأحياء .

وضمت الثلاثة حجرة واحدة ، وحملت الزوجة إلى زوجها جرعة مخدرة ، وإلى ضيفهما فنجانا من القهوة ، ولم يكن أثر الجرعة فى جسد المريض ونفسه بأقل من أثر القهوة فى جسد الضيف ونفسه ، فقد هدأ فى نفسيهما معا هبوب العاصفة .

وقال الضيف وهو يشعل لفيفة قدمت إليه :

ـــ عجيب أمر هذه الحياة التى لم أر عدوا أحب منها ، كنت فى طريقى إلى الموت فردنى عنه أن سمعت فتحة باب ، كما علمت يا صديقى ، ثم ما لبثت أن اطمأننت إلى أن سبب انتحارى غير مقبول ولا معقول . فأنا أملك شيئا سينتحر إنسان غيرى لأنه فقده .. أنا مفلس فاشل فى كل عمل ، ولكننى صحيح البدن ، وأنت كما أرى موفق فى كل شىء إلا أنك مريض ، فأين إذن المثل الذى يسعى إليه الأحياء ؟!

فقال المريض :

ـــ يخيل إلىّ أنه غير موجود . نحن من تربة الأرض ، تماثيل من طينها .. تراب حى .. تراب يسعى فوق تراب . فرع يمشى فوق أصله ، فإن أحببنا الحياة فلأننا قطعة منها . أترانى أجهل أننى سأموت بالسرطان ؟ هذا حتم .

فقال الضيف مداعبا :

ـــ إذن فلم تتعجل الموت لتنال الراحة ؟!

فقال المريض :

ـ موقفي من السرطان الساعة ، هو نفس موقفي من ماء البحر لو أنني هويت إليه ، فأنا في كلتا الحالتين أجاهد لأنجو .. حتى يغلبني الموت !

★ ★ ★

الخيل والعبيد

كان الطريق خاليا تقريبا إلا من بعض مارة ألجأتهم الحاجة إلى المشي والحر لا يزال شديدا والشمس ترمي الأرض بأشعة حمراء استسلمت لها الحقول حتى كأنها نامت ساعة القيلولة .

وكنت في طريقي إلى محطة سكة الحديد لأركب قطار العصر بعد أن عدت مريضا ستعرف من هو فيما بعد . ولست أدري لم آثرت أن أقطع هذه المسافة على قدمي وإن كانت غير طويلة فهي اثنان من الكيلومترات ، ولعل حبي لجمال الحقول ومشاهد الطبيعة دخلا في الموضوع ، فلقد أخذت أنقل خطواتي على الطريق الزراعي الضيق متجها نحو الغرب وعن يميني وشمالي أرض شاسعة المساحة تقوم فيها أعواد القطن حمراء جرداء ليس عليها شيء حتى الورق بعد أن جمع منها الذهب الأبيض .

ولم يكن الطريق كثير الشجر ، ولم تكن الأشجار القليلة التي تناثرت على يمينه وعلى شاطىء الترعة طويلة ولا ظليلة لأن معظمها من السنط ذي الورق القليل .. وسرت غير متلفت حولي لأن المنظر سحرني واستأثر بانتباهي على الرغم من شدة الحر . ولما انتصفت المسافة رأيت على شاطىء الترعة أول إنسان قابلته في رحلتي هذه .

ولم يكن رجلا عاديا تمر به العين كما تمر بكل الناس وإنما استطاع

هذا الإنسان أن يقيد نظراتى على وجهه وأن يجعلنى ألقى عليه السلام ثم أقف مكانه كأنما لأسأله عن شيء .

لم يكن جالسا وحده بل كان بين مخلوقين أحدهما بقرة صغيرة والآخر عنز كبيرة وهناك شجرة من السنط جاوزت عهد الشباب وأدركتها الشيخوخة فألقت عليهم ظلا غير ظليل ، ومن الغريب كذلك أن يكون الرجل شيخا مسنا جاوز الستين فبدا كأنه فضلات تخلفت عن طعام الزمن !! عليه قميص لا ينتمى لونه إلى البياض ولا السواد ولا الحمرة ولا الخضرة ولا أى لون من التى عرفها الناس ، وقد انفتح عن صدر نتأت ضلوعه وابيضت الشعرات القليلة التى نبتت فيه . ناحل ضئيل متربع على الشاطئ فى استقرار ساكن كأنه واثق من أن الدنيا قد نسيته .

وكانت المخلوقات الثلاثة تتناول طعامها فى هذه اللحظة التى مررت فيها على متن الطريق . أما « الإنسان » فقد كان طعامه مؤلفا من أصناف ثلاثة : خبز ذرة بله فى الماء الكدر الغنى بالطمى ونشره على خرقة أمامه ، وباذنجانة طازجة شطرت نصفين ، أما الصنف الثالث الذى يقوم مقام الحلوى أو الفاكهة فهو « الصبر الجميل » .

أما البقرة والعنز عن يمين وشمال فقد كان أمام كل منهما بعض الحشائش و لم يكن يبدو عليهما الشبع كذلك حتى لكأن هذا قد كان من باب التضامن بين المخلوقات الثلاثة ، التى سلكتها الأقدار فى سلك واحد .

لم أملك إلا أن أتوقف أمام هذا المنظر وقلت للرجل :

— السلام عليكم يا أبى .

فتريث قليلا حتى ازدرد ما فى فمه من طعام ورد على السلام ثم قال بشهامة الريفى الخالص :

ـــ تفضل يا بنى قاسمنى غدائى ، ولو كنت واثقا أنه من مقامك لحلفت عليك .

ثم كف عن الأكل وبدا عليه كأنه محرج لكن فرحته بتعريجي عليه وتوددى إليه أنسته الكسوف . وكان للابتسامة التى واجهته بها أثر بليغ فى قلبه الطيب فاطمأن إلى حتى فاضت ملامحه بشرا وحبا . قلت له :

ـــ إن الطريق مشمس فهل يسرك أن أستريح قليلا بجوارك فى ظل هذه الشجرة ؟ .

فأجابنى على االبديهة :

ـــ يا سلام يا بنى .. أتراني سأشترى لك ظلا .. ولكن .. هب أنه يشترى وكن واثقا أننى أشتريه من أجلك .. تفضل وقل لى : من أين أنت قادم ؟

قلت :

ـــ إنى راجع من عيادة مريض وسأدرك قطار العصر لأعود به إلى المركز .

قال الرجل :

ـــ هل أنت دكتور يا بنى العزيز ؟

وأومأت برأسى أن نعم ، وما كدت أنتهى حتى انطلق يشرح لى آلامه وأوصابه ، والأوجاع التى حطمت بدنه :

ـــ ربو يا بنى .. وسعال عنيف .. وألم فى المفاصل .. وضعف نظر

أعجز عنه أن أميز بين الأشياء وكل ذلك غريب على لأن أبى عاش تسعين سنة وأسنانه سليمة .

قلت له :

— شفاك الله يا عمى ، ولا تجزع فإنه حكم السن .

فضحك ضحكة فهمت منها أننى أخطأت قصده ثم قال بعدها :

— أتظننى آسفا على نفسى .. ليس هذا قصدى .. انظر . وأشار إلى حقول القطن الخاوية وقد قامت أعوادها فى انتظار المناجل ثم أردف :

— أنا مثل هذا الحطب قد جاء أوانى ، لكن الذى أشقانى هو أنى فقدته وهو فى عنفوان الشباب . انظر . هل ترى حقول الذرة النضرة الخضراء ، لقد كان كذلك .

قلت :

— أهو ابنك ؟

فقال :

— نعم ، ليتنى عرفتك أيامها يا سيدى الدكتور إذن لطلبت منك المعونة لقد مات .. بالـ .. بالـ .. بالتيفوس !!

وكففنا عن الحديث فجأة لأننا سمعنا وقع حوافر جواد كان فى طريقه إلينا ثم ما لبث أن مر علينا ، وعليه سيد يرفع المظلة فوق رأسه لتقيه أشعة الشمس ومن ورائه كلب يجرى خلف الحصان ومن ورائهما معا رجل يحاول ألا يتخلف عن ركاب السيد ، يحث الخطا على التراب الساخن واضعا فى فمه أذيال جلبابه والعرق يتصبب منه ، ولما مر بنا الموكب حاول الجالس أن يقوم تحية للراكب لكن سرعة المرور أعفته من هذا العناء

.. و لم ألبث أن هممت أسأل :

ـــ من هذا ؟

فأجابني بصوت خاشع :

ـــ إنه صاحب هذه الأرض !!

***

ثم جعل الرجل بعد ذلك يفيض فى ذكريات ابنه وكيف أنه لم يحتمل التيفوس أكثر من ليال ثلاث . وفاضت به الذكرى فوصف ما كان يلقاه أصحاب الجلباب الواحد من بلاء هذا المرض ، ثم عرج على شئون شتى حتى سألنى عن أحسن دواء لمرض الربو . ولجأت إلى معلوماتى أستعين بها على الإجابة ولكن طارئا جديدا قطع علينا سياق الحديث :

كان هناك سيارة متجهة نحو الغرب فلما صارت على مقربة منا توقفت عن السير ، وهناك أيضا راكب متجه نحو الشرق تقابل مع صاحب السيارة وجها لوجه على الطريق الضيق و لم يكن هذا الراكب سوى صاحب الجواد الذى مر بنا منذ هنيهة ووراءه كلب ورجل وكلاهما يجهد نفسه حتى لا يتخلف عن السيد الراكب .

والتقى السيدان على قارعة الطريق فتبادلا التحية ونزل كل منهما عن مطيته ثم انتحيا ناحية ووقفا يتحدثان و لم يلق علينا أحدهما سلاما كأنهما لم يشعرا بوجودنا .. ولكن الشيخ وقف احتراما لهما على الرغم من كل ذلك وأسند جسمه المتهالك إلى الشجرة وشاءت الأقدار أن تتوج الموقف بشيء فنفحته بنوبة من نوبات السعال أرهقت أنفاسه وهو فى موقفه . أما أنا فقد وقفت ولكن لأتأمل منظرا ظلله الحقد وسيطرت عليه البغضاء .



و لم يكن هذا الراكب سوى صاحب الجواد
الذى مر بنا منذ هنيهة ووراءه كلب ورجل

كان أمامى فى هذه البقعة فريقان يكره كل منهما الآخر فعلى بعد خطوات وقف الخادم التابع ممسكا بلجام الحصان والخادم مضطرب النفس غارق فى عرقه ينظر إلى السيدين نظرات لا حب فيها .

وإلى جوار الشجرة كهل مريض رأى الجلوس جريمة ما داما لم يسمحا به ولو أنه متهالك يكاد يهوى بعد كل سعلة . أما العنز فإنها انكمشت خائفة من الكلب ، وأما البقرة فإنها تلفتت مذعورة من الحصان ، فبدا الموقف غريبا مضحكا مبكيا فى وقت واحد فقلت فى نفسى : « يا إلٰهى .. ما قيمة دنيا تسيطر عليها البغضاء ؟ » .

كانت السيارة قريبة منا وكان فيها راديو وكان هناك صوت ندى جميل ينبعث منه ويتناهى إلى أسماعنا فخفف عنا شيئا من مرارة الموقف . لم يكن الصوت يغنى بل كان يرتل القرآن وعندئذ سمعته يقرأ : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ وسمعت الكهل العجوز يقول وهو لا يزال معتمدا على جذع الشجرة : « صدق الله العظيم » وعيناه تلمعان باليقين والإيمان .

ثم سار السيدان وخلا الطريق تماما وودعت الرجل لأدرك القطار . ثم تذكرت وأنا مسافر أننى لم أصف له الدواء للربو فحمدت الله لأن الظروف لم تمكننى من ذلك ولأن الرجل لم يسألنى مرة أخرى فقد كنت فى الواقع « طبيبا بيطريا » ولم أشأ أن أجرح شعور الرجل فأقول له أننى استدعيت لمعالجة حصان مريض لأنه كان يشكو لى آلام (إنسان) .

ولما ركبت القطار واستقررت على الكرسى وهب على الهواء منعشا نوعا ذكرت قول الله : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ﴾ ثم ذكرت المنظر الذى وصفته لك وذكرت كذلك إيمان العجوز بأن الله كرم الإنسان فقلت فى نفسى : محال أن تدوم هذه الحال فإن الله الذى خلق الظلام والنور والحزن والسرور لن يديم دولة لم يكرم فيها بنو آدم .

وقد كان ..

* * *

ذكريات إحساس

(النافذة الغربية)

« كان المرج واسعا والماء صافيا نميرا والعشب أخضر ملتفا يغرى بالرعى سارح السوائم . وقطيع البقر يجرى هٰهنا وهٰهنا طاعما من الكلأ شاربا من الماء ، موقنا أن عين المقادير نائمة عنه ! كان ذلك كذلك حين جاء أول إنسان وقاد أول ثور ليضع على عنقه النير ثم شده إلى المحراث وشق به الأرض » .

هذا ما قاله الثور الأبلق والزبد يسيل من شدقيه ولا يكاد يستطيع أخذ أنفاسه حين وقف تحت الشجرة إلى جانب الثور الأسود لينالا علفهما ثم يعودا فيحملا النير .

ولم تكن ذكريات الحرية الأولى التى أثارها فى نفس صاحبه لتخفف عنه ما يعانيه هو من حنين . فقد احمرت عيناه وأخذ يلوح بقرنيه فى الهواء بين فترة وفترة كأنه يغالب نقمة حارة تعتلج فى نفسه وما يخففها عنه إلا فتكه بهذا الحراث .

ولم يكن قد وضع رأسه فى المزود ساعة استعاد ذكريات جنسه . كلا .. ولا وضع فمه بعدها .. أما صاحبه الثانى فإنه جعل يأكل التبن أكلا لمًّا غير مبال بما يخالطه من زبد يسيل من شدقيه . فحمل ذلك الثور الأبلق على أن يقول له :

ـــ أنت يا أخى هادىء الطبع فلم تثر فى نفسك ذكريات جنسنا

ما أثارته فى نفسى الآن .. إنها صدتنى عن الطعام ، أمّا أنت ..

فلم يرفع الأسود رأسه عن مزودهما المشترك بل مال إليه بصفحة وجهه وجعل يقول ساخرا :

— هيه أيها المغرور !. أكانت أملك بقرة فيلسوفة قصت عليك ما حفل به التاريخ البقرى فى الزمان الخالى من سعادة كخيال الأساطير ؟! وافرض أن هذا صحيح فماذا تريد أن تفعل الآن . سلم بالواقع أيها الأحمق .. الواقع قوة تفرض نفسها على كل قوى . إن عنقك الغليظ لم يخلق إلا ليحمل النير .

فضرب الأبلق الأرض بحافره من الحنق والغيظ ثم خار خورة مكتومة ، ثم نظر إلى الحقل الواسع الذى تتطلب أرضه منه عناء طويلا وأرجع بصره إلى الثور الأسود الذى كان منهمكا فى الأكل ثم قال له :

— أيها المظلم البليد ، .. أنت مخطىء الإلهام . أتظن أن أعناقنا خلقت غليظة هكذا أول ما خلقت ؟!. كلا يا أخى ، و لم تصر هكذا إلا لأن جدنا الأول حمل النير يوم قاده الإنسان من المرج المخصب فغلظ عنقه يومئذ شيئا ورثه ابنه من بعده ، ثم أخذ هذا الميراث السيىء يظهر أكثر وضوحا على تعاقب الأجيال حتى جئت أنا وأنت على الصورة التى تراها الآن .

إن توارث العيوب واستسلام الأجيال لكل ما تكره من أكبر البلايا التى تصاب بها الجماعات . فلو أن الثور الأول رفض النير ما حمله الثانى من بعده . والثانى ليس خاليا من المسئولية لأنه لو رفضه هو كذلك ما حمله الثالث . وبتتبع حلقات السلسلة نصل إلى أنه من الواجب على

وعليك أن ننزل النير عن عاتقنا لنتخلص منه سلالتنا المقبلة .

قال الأسود وقد كف عن الأكل :

ـــ لكنك فى كل ما تقول تناقض مبادئ الخليقة لأنى لا أكاد أرى نوعا غير البقر يصلح لجر المحراث .

فقال له الأبلق :

ـــ لم يكذب ظنى فيك فأنت تافه بليد . لماذا أكلف نفسى عناء البحث عن جنس آخر يحمل النير من بعدنا . لسنا نريد إلا أن نتخلص منه فحسب ثم لتحمله الشياطين أو ليحمله الحراث نفسه ، وكل ما أستطيع أن أجزم به هو أن الثور الأول لم تكن خلقته على ما نحن عليه الآن . ربما كان رقيقا لطيفا فيه شبه من الغزلان ، ولكن الاستعباد هو الذى أتلف نسله على مر الزمن . أما سمعت عن قصة الغراب يا صديقى ؟! كان يمشى فى الزمان الخالى معتدلا على رجليه ، لم يكن يعرج . ثم طرأ عليه شىء خارج عن خلقته فمشى على رجل وقبض رجلا بعد أن فشل فى محاكاة العصفور فنسى مشيته الأولى ، ثم صار الغربان جميعا إلى ما تراه الآن مشيها وثب .

ذكرناه فحضر .. ها هو ذا قادم .. ألا تراه ؟ ها هو ذا آت ليلتقط حبات الفول من أمامنا فى المزود .

وتهافت الغراب باحثا عن الحب فطرده الأبلق برأسه ، ثم عاد فطرده مرة أخرى فوقف الغراب على الشجرة وتأرجح بأحد أغصانها وقلب رأسه ذات اليمين وذات الشمال كأنه يفتش عن غراب آخر ، ثم قال للثور الأبلق :

ـــ أتحول بينى وبين الحب يا ... يا ... ثور !!

فنظر إليه الأبلق غاضبا .

فاستطرد الغراب فى سخرية :

ـــ إذا لم تكن ثورا فماذا تكون ....أأنت جمل ؟!

فنظر كل من الثورين إلى صاحبه نظرة ذات مدلول . لكن الغراب واصل ما كان بصدده :

ـــ لقد سمعت ما كان أحد كما يقوله عن الغربان وأنا فى طريقى إليكما . لقد ورثت عن أبى عرجا و لم أرث عنه عبودية . هل تسمعان ؟! أيها الثوران هل تسمعان ؟! وأنا على رغم عرجى قادر على أن أسخر منكما وممن استعبدكما كذلك . انظرا .. انظرا .

ثم أطلق سلسلة من النعيق تشاءم منها الحراث فقام عن غذائه وقذفه بحصاة فى موقفه على الشجرة . لكن الغراب طار وهو ينعق ساخرا منه ويقول للثورين بين كل نعقة ونعقة :

ـــ أنا ابن الهواء الطلق .. أنا ابن ذوائب الأشجار !!

* * *

جعل كل منهما ينظر إلى صاحبه نظرات مخزية . وبدأ الثور الأسود يحس بالخيبة وذل العيش ووضحت له الحقيقة سافرة بعد هذا الحادث فرفع رأسه من المزود ناظرا إلى الأبلق بعينين ملتهبتين كأنه يسأله ماذا يجب أن يعمل . شىء فظيع . حتى الغربان تسخر منهم .

فقال له صاحبه :

ـــ هل صدقت الآن ؟! والآن آمنت أن هناك حياة مثلى وأن نصيبك

من الأرض التى تحرثها نصيب حقير ؟! أتظن أنه من الضرورى ألا ننال طعامنا إلا إذا هدمنا من جسدنا ركنا وقد كنا من قبل نرعى كلأ خلقه الله من أجلنا يوم خص كل جنس بطعام ومكان ؟! وقد بقينا هكذا حتى حجزنا الظلم عن مرعانا وشدنا فى الحبال ثم سخرنا لنفسه وقدم إلينا الكلأ على أنه فضل . ومر الزمان ومر ، فخيل إلينا أن مرعانا حرام علينا مع أنه لم يخلق إلا لنا .

كان الحراث قد فرغ من غدائه واضطجع قليلا على أحد شقيه وعيناه إلى الثورين وهما واقفان . فرأى الأبلق لم ينل من علفه شيئا على حين أكل الأسود قليلا ثم كف عن الأكل . فقام إلى الأبلق يمسح على ظهره ويطرد من عينيه الذباب ثم حل رباطه وأورده الماء ليشرب ثم أعاده إلى ظل الشجرة ورمى أمامه حفنة من الفول خصه بها دون صاحبه ثم عاد فاضطجع فى هدوء ليرقب مجرى الأمور .

لكن الثورين تبادلا نظرات ساخرة حين رأيا أنه حابى أحدهما ولم يهويا إلى علفهما بفم .

ومرت لحظات قام بعدها الحراث إلى الأبلق فصب عليه سوطه ثم جرهما معا إلى المحراث حيث ظلا يعملان فى شق الأرض حتى مالت شمس اليوم نحو المغيب .

***

وأوى الفلاحون إلى الأكواخ ، وأوت البهائم إلى الحظائر ..

وهجع كل شيء إلا آلام المرضى والمتعبين ...

ورقد الأبلق بجنب الأسود يجتران على المربط علف المساء ويراجعان



كان الحراث قد فرغ من غدائه واضطجع على
أحد شقيه وعيناه إلى الثورين وهما واقفان

حديث النهار فقال الأسود :

ـــ لقد كفرت بالذى قلته لى فى الصباح يا صديقى لأننى فكرت فى الموضوع وأنا هادىء نوعا .

فسأله الأبلق :

ـــ وما معنى ذلك ؟

فأجاب :

ـــ فى المشكلة شىء لعله لم يطرأ على بالك . عاونى .. تخيل معى .. هل من الممكن أن تتصور النير على عنق مخلوق إلا أن يكون ثورا ؟! وكما ينسجم البلح على النخل والجميز على شجرة الجميز لا ينسجم النير إلا على أعناقنا .

تصوره مثلا على رقبة جمل أو تصوره مرة على رقبة زرافة ، ثم احكم ، فإنك ستجده شاذا غريبا .

فنطحه الأبلق برفق ليرجع إليه صوابه قبل أن يقول :

ـــ لن ينزل من على عنقك النير حتى تؤمن بأنه لم يخلق لك . ولو رآه الناس منسجما على رقاب الجمال والزرافات طوال القرون التى رأوه فيها منسجما على رقابنا لآمنوا وآمنت معهم بأنها خلقت للنير . إن طول الألفة للمكروه يقربه من أن يكون فى نظر الضعفاء حقا على أن الأقوياء يرقون دائما من حسن إلى أحسن ومن تل إلى قمة .

ثم قام واقفا وخار خورا عنيفا هز أرجاء الحظيرة حتى ظن الأسود أنه باطش به لكن الأبلق استطرد يقول :

ـــ ولست مغاليا إذا قلت لك : لو رأى كل ما يسكن الأرض من أن البشر من قديم تحت سلطان البقر لألفت دواب الأرض كلها هذا الوضع .

الأمر فى أوله مصادفة ، ثم تألف العين ما تفعله المصادفة حتى يقال بعد طول السنين : يجب أن يكون هذا هو الجنس الغالب .

فقال الأسود لاهثا :

ـــ وماذا أنت تقترح أن تفعل ؟ اهدأ قليلا حتى لا يسمعنا الحراث .

فأجاب :

ـــ بل إنى أريد أن يسمع .

المرج لنا ، والكلأ ملكنا كما خلقه الله .

فاعترض عليه صاحبه :

ـــ وهلا ينجيك هذا من الحراث عند مشرق الشمس ؟

فرد عليه قائلا :

ـــ لن ينجينا منه ولا من النير إلا أن تعتصم البقر كلها بالمرج الذى أسر فيه جدنا الأول . والأمر بعد ذلك لا يعدو أن يكون أحد شيئين ، فإما أن يكون المرج للبقر ، وإما أن يكون المرج للبشر !!

* * *

وهجع الثوران حتى الصباح و لم يكونا نائمين لأن أحلام النير قد أفسدت عليهما طعم المنام .

* * *

بكاء الشادوف

يستوقف نظر من تسوقه قدماه إلى تلك البقعة الهادئة الواقعة على النيل فى القاهرة قطعة أرض من بقايا الحقول تنظر إليها القصور فى ازدهاء وكبر .. لكن الخصب الكامن فى معدنها بدا كأنه يتلقى عنجهية المبانى بتسامح وعفو وإغضاء . كنفس العمل الذى يأتيه سكان هذه المبانى ونفس العمل الذى يأتيه الكادحون فى هذه الأرض !!

وهناك كوخ صغير يجثم بين قصرين ..

جدرانه من صفيح وحطب ، وطين وقصب .. وجثم كأنه رصد وكله فرعون بكنز ثمين .

يتصاعد الدخان من بابه وسقفه وكواه والتفاريج التى تملأ جدرانه فلو رأيته من بعد لظننت أنه يحترق .

لكنك حين تقترب منه يأخذ سمعك أول ما يأخذه غناء ناشز لا انسجام فيه يتردد بلهجة صعيدية ويراسله على البعد فى وسط الحقل بكاء لشادوف ينزف الماء من بئر غير غزيرة حيث يسقى السبانخ والخبازى والنعناع والجرجير ، وبعض شجرات من الورد نثرت فى فوضى على حوافى الحقل لأن غرسها لم يكن عملا مقصودا لذاته .

وإن كنت ممن لا يقيسون الأمور بالأرقام كما يفعل عداد الماء أو عداد الكهربة حكمت بأن فى هذا الكوخ سعادة قد لا تكون فيما هو منزو بينه من قصور .

وكثيرا ما يأخذ بصرك أول ما يرخى الليل سدوله غلام فى السادسة من عمره أسمر صعيدى محلوق الرأس بغير انتظام ، جميل العينين أخضر الأسنان من كثرة أكل الخضر . واسع الجلباب مفتوح الصدر . ترى هذا الغلام وقد جعل من إحدى الصفائح الفارغة دفا يوقع عليه غناء يطرب له جدا .. وقد تطرب له أنت كذلك على شرط أن تسمعه بأذنيه .

قلما يمسك الشادوف عن البكاء ..

وقلما يكف الدخان عن التصاعد ..

وقلما يتخلف الغلام عن الغناء ..

مشاهد متتابعة متلاحقة كأن كلا منها كان سببا فى ظهور الآخر !!

* * *

كان الليلة جالسا على باب الكوخ واجما لا يغنى والدف الصفيح ملقى على بعد منه كأنه عود خال من الأوتار . وكان وجهه الذى بدت ملامحه تحت ضوء شاحب من مصباح صغير متجها إلى نافذة القصر فقرأت عليه حزنا ، وأظن أنه لولا وقوف الظلام بينى وبينه لرأيت فى عينيه البريئتين دموعا . وأيد ما ظننت أننى سمعته يهيب بأمه الجالسة على العتبة من الداخل قائلا لها وهو يشير إلى نافذة مضيئة :

— أما يزال « عادل » مريضا بالحمى ؟.. ترى كيف حاله الآن ؟. إننى لم أره من زمن طويل .. طويل .

كل يوم أجهز له الورد ولكنه لا ينزل .. ليتنى أستطيع الدخول إليه .. منعنى الخدم خمس مرات فرميت بالورد فى النيل لأننى قطفته من أجله .

فقالت الأم فى حدة شديدة :

ــ إياك أن تحاول هذا مرة أخرى .. مغفل .. « امتى ح تفهم » . إن أمه غاضبة وتزعم أن نزوله إليك هو الذى سبب الأمراض . ألم تسمعها وهى تحذره من أن يمشى فى الحقل أو أن يقترب من الكوخ ؟!

فقال الغلام :

ــ سمعتها يا أمى . وكانت تفتح النافذة المطلة علينا وتنحنى إلى الأمام وهى تشير بيديها وتنادى عليه : « دولا .. دولا .. ألم أنهك عــن النزول ؟! » .

ثم يسكت الغلام برهة ويشرد بصره فى الفضاء قبل أن يمصمص بشفتيه ويهز رأسه فى صمت ثم يسأل أمه :

ــ ولكن .. لم يمرض عادل يا أم وهو يأكل لحما ويعطينى شيكولاتة ؟! إن الدكتور فى المستشفى قال لى يوم ذهبت مريضا : « غذ نفسك يا شاطر » . لم هو مريض يا أم ؟!

ــ لم يمرض من الأكل !!

ــ هل مرض من الجوع ؟.. هل حرمه أبوه من الأكل لأنه (لا يسمع الكلام) ؟

ــ ولا هذا يا مرسى .. إنه مريض بالحمى .

ــ سيشفى بإذن الله ، عليه فقط أن يغذى نفسه .

ــ بالعكس ، يقولون : إن الطبيب منعه عن الأكل وهو يعيش على السوائل وحدها .

فهز الغلام رأسه فى حيرة مرة أخرى لأنه لم يستطع أن يوفق بين مشكلتين بدا التناقض واسعا بينهما : ناس يمرضون فيشفون إن شبعوا ، وناس يمرضون فيشفون إن جاعوا .

وفاحت روائح العدس فعطرت نواحى الكوخ وجلس مرسى إلى العشاء بين أبويه ، وبات بعدها يغط فى سبات عميق لأن البصل كان أكثر من كل مرة .

***

ولم تشأ أسرة عادل أن تؤخر عيد ميلاده وإن كان لا يزال فى دور النقاهة لأن فى تأخير أعياد الميلاد شؤما على المواليد !! ورأى مرسى وهو جالس عند باب الكوخ معطل الدف أن القصر الليلة فى زينة وأن أناسا كثيرين يدخلون . وسأل فعلم حقيقة الموضوع . وتقبل المريض التهانى والهدايا وهو فى سريره واختصر الحفل مراعاة للظروف وتجمع المدعوون يسمرون وتركوه وحده فى الفراش .

كانت هناك أقدام تتسلل على السلم الخلفى فى طريقها إلى عادل ، حالف الحظ صاحبها فلم يشعر به أحد . ودخل مرسى على صديقه غرفة نومه وفى قلبه شوق وفى يمينه حزمة كبيرة من الأزهار لم ينسقها سوى الحب . . وكان المريض مسبل الجفنين كأنه نائم فأقبل عليه صديقه كما يقبل الظامئ على المنهل وأكب عليه فى قبلة أيقظته من أحلامه . وعجب عادل لأن البراءة لم تكن قد خضعت بعد لسلطان التقاليد فابتسم له ومسح على رأسه الأشعث المغبر لكنه سرعان ما ذكر أمه وخيل إليه أنها تنادى من النافذة المطلة على الحقل وهى تشير بإحدى يديها : « دولا ... دولا ...

ألم أنهك عن النزول ؟! » . فقال لصاحبه :

ـــ انزل يا مرسى .. أنت سبب مرضى كما تقول أمى !!

فلم يسع الضيف إلا أن يحملق فيه بعينين مستغربتين فيهما آثار من الدموع وهو يشير إلى صدره بأصبعه ويقول متعجبا منكرا :

ـــ أنا ؟ .. أنا ؟!

وكأنما عز على الصديق الثانى أن يبكى زائره فهمس :

ـــ انت زعلت ...

فمال مرسى عليه ليقبله مرة أخرى .

وتنقضى أيام يتم فيها شفاء عادل وينزل إلى الدنيا ليملأها نورا وأنسا وتحقق الأم نذرا أنذرته لله فتحرم على ابنها أن يحوم حول الكوخ القريب ولو مرة واحدة . وتظل عينا الصبى الثانى تبحثان فى سكون ولهفة عن الصبى الأول حتى إذا ما غلبهما اليأس اتجهتا نحو نافذته تطالعان النور .. ثم تنقضى أيام أخر ..

وتتسق الأمور لأم عادل لأن ابنها أصبح فى أمان .

إن مرسى لا يظهر له ظل فى المكان جميعه ولا يسمع له صوت . وكثيرا ما يهز الشوق إليه ابنها الصغير فيطل من النافذة عله يراه فى الكوخ .. كان مرسى يهتف باسمه لكن صوته لم يصل إليه لأنه كان بعيدا .

كان راقدا فى مستشفى الحميات فى الدرجة الثالثة حيث تتقارب الأسرة فى ازدحام قذر تشرف عليه نفوس لا تحب عملها .

كان الغلام إذا هتف باسم صديقه وهو فى وهج الحمى تنهدت إحدى الأمهات فى سرير مجاور لتسهر على ابنها الصغير كما يقضى نظام المستشفى



إن أمه غاضبة وتزعم أن نزوله
إليك هو الذى سبب مرضه

ثم قالت :

— يا عينى .. لازم أخوه !!.

لم يكن هناك غناء لأن مرسى غائب لكن الدف الصفيح كان ملقى فى إهمال على مقربة من الباب . والشادوف كما هو لا يكف عن البكاء . والدخان كما هو كذلك لا يتخلف عن التصاعد .. أعنى أن ظاهرة واحدة من الظواهر الثلاث هى التى غابت !

وتدافعت الأيام فى طريقها والمريض فى المستشفى يزهد فى الطعام يوما بعد يوم حتى قنع بالماء .. ثم استغنى عنه آخر الأمر !.

وارتفع صراخ فى الكوخ بعد ارتفاع الضحا حين نعى المستشفى إلى الأبوين ولدهما .. ثم غابا قليلا عن الحقل ريثما قضوا له آخر حاجاته ثم عادوا . وكان ما عملته أم مرسى أن أخذت الدف وجرت به نحو النهر فألقته فيه .

وأشرقت شمس اليوم التالى فتخلفت الظاهرتان الباقيتان .. لم يكن الشادوف فى ذلك اليوم يبكى لأن صاحبه كان يبكى بعينيه .. ولم يكن يتصاعد من الكوخ دخان .

وكان هناك صوت فى النافذة ينادى بين حين وحين : دولا .. دولا .. » فيكمل الوالدان فى ضميرهما بقية الدعوة : « ألم أنهك عن النزول » ؟

ثم تكفكف المرأة دمعها بطرحتها ويمسح الرجل دمعه بطرف كمه .

ثم أظلت الليلة التالية فلم يوقد فى الكوخ مصباح بل لبس الظلام منذ مدخل الليل حتى نهايته .. أما القصر فقد كان مشرقا بأضوائه مزهوا بجمال بنائه .. فهل أحس بالزهو الذى يحسه الصنم حين يحرق تحت قدميه قربان ؟!



ثمرة الخوخ

« ويختلف الرزقان والفعل واحد !! »

* * *

كانت تهم أن تقول لى شيئا كلما لقيتنى على الطريق ولكننى كنت أتحاشى أن أقول لها شيئا .. كنت أشفق عليها كما أشفق على بعض الساذجات واختصصتها هى بقدر زائد من الشفقة لأمر لست أدريه .

وكان الاندفاع من أهم مميزات شبابى ولو أن الاندفاع معنى شائع فى السنوات الباكرة من حياة كل شاب ، فلم أكن أحدد حركاتى كأننى آلة تدور بحرية أو ظاهرة من ظواهر الجو لم تعترض سبيلها ظاهرة مضادة .

وكان أبى قرويا نابه الشأن تخلفت فى شيخوخته بقايا شباب نجح فى كبتها حينا وأخفق فى كبتها حينا آخر .. له ما لبعض الريفيين فى تربية أبنائهم من تقليد غريب إذ يفخرون بنزوات بنيهم حين يطلقونهم على العباد فيتفننون فى أذاهم كما يطلق السادة كلابهم على عابرى السبيل .

لكن طبعى على الرغم من تربيتى هذه لم يخل من شاعرية كانت (تنتابنى)فى فترات متباعدة تطبع نزواتى بطابع يأسر لب النساء حين يرين فى رجلا أشبه بمن يلعب بالسيف والعود فى وقت واحد .

***

كانت تلقانى على الطريق فتهم أن تقول لى شيئا فأعرض عنها إعراض الراغبين ، ثم أسأل نفسى كلما خلوت قائلا : « واشمعنـى دى » فلا يلبث قلبى أن يبعث إلى بالجواب .. خفقة صغيرة ، ثم يكف .. ويشيع فى الصدر حنان رطب إن صح هذا التعبير .

ويقوم جدل عنيف بينى وبين نفسى لأننى أعرض عنها لخوف عليها .. متى ! لكنها — وهى الساذجة المتطلعة — كانت تلقانى بعينين فيهما تساؤل ونداء ، وكأنها تقول لى فى كل مرة : « واشمعنى أنا ؟ » وهكذا ترى الآية معكوسة عندهن يتطلعن إلى من اشتهر بينهن حتى أظهرن « بيرون » و « ودون جوان » .

كنت مشغولا عنها بغيرها طوال الصيف الماضى فلم أنتبه لها حتى كأنى لا أراها أو كأنها فى نطاق عاطفتى نبتة ذات نعومة تشق الأرض من فوقها برفق شديد . وكنت فى استرسالى مع بدواتى طول إجازة الصيف أشبه بمن يعيش فى صخب دائم فلم أستطع أن أسمع صوتها الناعم .

لكن الأمور تغيرت فجأة وحولت اتجاهها على غير انتظار وكان ذلك عصر يوم من الأيام حين التقينا على الطريق بين الحقول أنا فى اتجاهى إلى المزارع وهى فى اتجاهها إلى القرية فإذا بعينيها القويتين تتوسلان فى تطلع جميل .

وتحول خوفى عليها إلى حنان شديد خالص وتدخل قلبى فى القضية بطريقته المألوفة حتى طرحت السؤال القديم على بساط البحث « واشمعنى دى ؟! » أجل .. « واشمعنى دى ؟! » فوقفت فى طريقها كأنما سمرت فى مكانى .

كانت نسمات أكتوبر فى هذه اللحظة تخطر بأناقة على التربة السخية

السمراء التى تطرحت عليها أعواد القطن بعد اقتلاعها من الأرض فى هيئة حزم لا تزيد الواحدة منها على حضن الرجل ، رصت فى نظام يذكر باتساق الأسرة فى عنبر من العنابر . ثم تخطو النسمات من ناحية أخرى على أديم الترعة فتحيل صفحته إلى موجات تنساب فى تلاحق كأنها اطراد نفس هادئ. وداعبت نفس هذه النسمات بعض شعرات سود كانت ظاهرة من حواف منديلها الليمونى .. وهناك اختلاجة مستحية على شفتها السفلى كأنما جاءت هى الأخرى بفعل النسيم .. قلت لها بصوت لا اضطراب فيه لأنى تعودت محادثة الكثيرات :

— على فين يا عزيزة !

فأشارت بنظرتها وأهدابها وحركة خفيفة من رأسها إلى اتجاه القرية .

أشارت دون أن تتكلم فأيقنت بينى وبين نفسى أن شيئا ما يضطرم فى داخلها فيعجزها عن الكلام . كان حياء قبل أن يكون شيئا آخر تمازجه رغبة أو يمازجه حب لكن الذى استوقف انتباهى هو أنها بدت فى موقفها هذا أجمل مما ألفتها بكثير .. ما رأيتها قط فى مثل هذا البهاء ولو أنها كانت أشبه بثمرة الخوخ على الشجرة القريبة من الطريق المترب فى إحدى حدائق الفواكه .. زغب وألوان .. وعصير تحت القشرة الطرية تذوقه العينان .

وعلى ذلك كله غبار خفيف تنازعك يدك لتمتد فتزيله !

قلت بصوت عالى النبرة فيه شىء من إمارة السادة .

— ما بالك لا تجيبين ؟!



ما رأيتها قط فى مثل هذا البهاء ..

فأطرقت نحو الأرض وهى ترد :

ــ على إيه مش مسافر بكره ..!

وجمدت فى موقفى كأننى جوبهت بما لا أعلم وإن كنت واثقا أننى مسافر غدا لكن تقصيها أخبارى ألقى على القلب برودة شبيهة الوقع بندى الصبح على الأطراف المحرورة قبل شروق شمس الصيف . وانقضت فترة لست أضبط مداها قبل أن أقول :

ــ يعنى إيه ... لست فاهما قصدك .

فلاذت بصمت وألقت ببصرها إلى الأفق البعيد فى اتجاه يرينى صفحة خدها الأيمن .. وضع جانبى ساحر بانت معه قصبة الأنف فى امتداد حلو والأهداب فى وضع يذكرك ميل الرماح ، وشىء آخر بدا على الخد من أعلى كان خالا خفيفا جدا وكان من المستطاع أن يكون أكثر ظهورا ، لو أن هذا الوجه غاب قليلا عن أشعة الشمس . خال مستقر على كرسى خدها كأنه يطل على وجهها من القمة .

وألقيت نظراتى إلى الأفق الذى تسابقت نحوه نظراتها حيث كان بعض الفلاحين يعملون على بعد فى تسوية الأرض لاستقبال زراعة الشتاء ثم حدثتها لتتكلم فقلت لها :

ــ ألم يعد فى الوقت بقية ؟

فهزت رأسها تثبت النفى فى ذات اللحظة التى بدأت تزايل فيها مكانها فقلت سريعا حتى لا يفوتها قولى :

ــ الليلة .. بعد العشاء .. عند الوابور القديم .

فلم تلتفت و لم ترد وبقيت عيناى تتابعان لين جسمها الممشوق الذى أظهرته المشية خلف ستار كثيف من ثوبها الواسع .

***

ولأول مرة أحسست أنى مقدم على أمر أنقل فيه خطواتى برفق .

خرجت بعد العشاء من بيتنا قاصدا إلى البقعة التى يقع فيه وابور المياه فى أرض أبى وهى تبعد عن القرية بمسير عشرين دقيقة .. كنت مرتديا ثوبا رماديا من الصوف من نفس اللون الذى يختاره الخفراء فى الليل ليمتزج تماما مع عتمة المساء فلا يرى شبح صاحبه .. رأسى عريان وفى قدمى حذاء من الكاوتش بلا جورب ، وأحمل أذيال جلبابى على ذراعى كما تحمل معطفا فى الشتاء .. والليل صائف هادئ لا يقلق سكونه إلا همسات النسيم فى ليل أكتوبر وخشخشة أو اثنتان فى كومة حطب أو حقل ذرة أو بين أغصان شجرة .. ثم يتسلط السكون .. لا هلال ولا بدر إلا نجوم ثاقبة كأنها خروق فى القبة الزرقاء .. وحذائى اللين « يبط » التراب كما « يبط » خف البعير على رمال الأرض .. غير أن أفكارى لم تكن تنساب بنفس الطريقة ، بل كانت تتفزز — وهى الساذجة الصغيرة — كما تتفزز عربة الأطفال على طريق ممهد .. لم أر على وجهها قبولا ولا رفضا و لم أكن واثقا من أنها ستلقانى ولكننى تابعت سيرى بشغف ولهفة و كانت أنامل حب باكر لا عهد للقلب به تغمرنى برفق لطيف .

وأخذ الطريق ينحدر صوب الحقول مخلفا من ورائه الطريق الرئيسى فبدت لى على بعد قريب المدخنة العالية قائمة فى صمت يطل أعلاها على ذوائب الشجر ويرقد تحت أقدامها بناء الوابور صدئا متهالكا متهدما

من بعض أجزائه كأنه شيخوخة لا راعى لها ولا معين .

وقبلت فى الظلام عينين فيهما وميض ثمانية عشر ربيعا ثم جلست عند سفح كومة من القش فزحفت إلى نفسى الكآبة . ولقيت من نفسى عناء خلال مدة الانتظار لأن شعورى كان مزيجا من إحساسات متباينة : حب وشهوة وشفقة ، وكانت الشفقة أبرز الألوان ، على أن هذا الشعور كان طارئا على قلبى فلم أحسه من قبل فى مثل هذا الوضوح وتململت فى مجلسى وألقيت نظرة من على كتفى إلى الكائنات التى تحيط بى فى هجعة الليل فرأيت فى أشباحها نفس النظرات التى تلقيها على الذئب وهو ينهش إحدى الأرانب وسمعت وسوسة أوراق الذرة فى الحقل القريب نفس الهمسات التى يعلق بها القرويون عند اعتداء القوى على الضعيف فى القرية .. همسات خافتة متحفظة تسترجع بسرعة عند الضرورة .

لكننى رأيتها وهى فى طريقها إلى فتمنيت لو أنها تخلفت .. قالت ونفسها متقطع كأنها جرت شوطا :

— أنت هنا ؟

— من بدرى .

وظلت واقفة وأنا جالس محتضنا ركبتى معا بذراعى معقودتين راجعا إلى الوراء كأننى مستند إلى ظهر كرسى . وتلاحقت أنفاسى وخيل إلى فى جلستى أننى أسمع دقات قلبها . قلت لها :

— تعالى جنبى .

— أنا خايفه .

— من مين ؟

فأجابت فى عين اللحظة التى استقرت فيها على كومة من القش .

— من الناس .

— كلهم ؟!

قلت وأنا أمد ذراعى إلى خصرها لأجذبها فأجابتنى قائلة :

— إلا أنت .

وصادفت آخر كلماتها أن تلاصق جسمانا فى شىء من القـوة . فاهتزت نبرات صوتها كما تضرب متكلما على صدره ، فوصلت كلمة « أنت » إلى أذنى مرتعشة متذبذبة .. فأغرقتنى فى حنان وفارقتنى الفورة وأخذت يدى تتراخى عنها قليلا كما يسقط الغصن فلم يبق من تلاصقنا إلا تلامس جنبينا بحكم اقتراب الأماكن ، ثم أطبق علينا السكون .

لم يكن سكوننا وحده بل كان سكون الليل كله . وانتابتنى شاعريتى على تباعد ما بين نوباتها فى العادة فتخيلت كأنى سأخدع طفلة ورأيتنى أكبر منها سنا وإن كنا أبناء جيل واحد . وتلاطمت بى مثل هذه الأفكار حتى سمعتها تهمس :

— مش خلاص ؟

— خلاص إيه ؟!

— خلاص بأه .. جيت علشان أقول لك مع السلامة وأرجع .

فأكملت قولها فى نفسى « وأرجع بالسلامة » . واستحال معنى كلمة السلامة إلى لون تمثلته عيناى لونا أبيض . كما تمثل المحاربون السلام

فى بياض الراية ثم تداركت سلسلة أفكارى فذكرنى الشىء بضده حتى تذكرت عكس السلامة بالنسبة للقروية الطيبة اللائذة بجنبى على كومة القش واستحال المعنى الثانى فى خاطرى إلى لون كذلك تمثلته عيناى فى ظلمة الليل أحمر !.. أحمر قانيا .. يلون شيئا .. يسيطر على أقدار الفتيات !

ونهضت من مكانها فلم أعقها عن الرجوع . ونهضت من مكانى فودعتها بقبلة وبقيت حيث أنا أرقب شبحها المنساب فى هدوء حتى اختلط سواد جلبابها فى سواد الظلمة .

***

لكنها خالطت أحلامى طوال الليل فأكملت وأنا فى فراشى خيوط قصة بدأناها معا على القش .

وأصبح الصباح فامتلأت الدار برائحة السفر وجعلت أمى تأمر وتنهى وإحدى الخادمات تجهز متاعى وحمار أو اثنان يتناهقان فى الحظيرة حين شدوا على ظهرهما البراذع ثم ركبنا إلى المحطة فى طريقى إلى العاصمة لأبدأ عاما دراسيا جديدا ، كنت أنقل بصرى فى نواحى الحقول وأنا أحس أنى تركت بين أرجائها شيئا . شيئا جميلا بقى إحساسى بجماله لأننى لم أحطمه ، كما أفعل دائما وكما يفعل غيرى من أمثالى فى كل قرية . وخفق القلب خفقة صغيرة لكن طعمها كان جديدا على . ومررت بإحدى حدائق الفاكهة فذكرت ثمرة الخوخ على الشجرة القريبة من الطريق المترب . الثمرة ذات الزغب والألوان .. والعصير تحت القشرة الطرية تذوقه العينان . وذكرت عزيزة والخال الجميل المستقر على كرسى

خدها كأنه يطل على وجهها من القمة .

وكان أخى مستغرقا مع خادم فى نقاش زراعى لا ينتهى فطنت منه إلى أنهما يحسبات المدة بين القريتين . كان ذلك حين لاحت فى المدخنة سوداء القمة كأنها نهاية لحياة شرير ، مستدقة ضاربة فى السماء . والبناء من تحتها يحملها على كره محاولا أن يحفظ توازنه بها كما يفعل البهلوان .

ولم يلبث القطار أن دخل علينا بضوضائه وزفيره فجهرنا بالتحية ليسمع بعضنا بعضا وكان آخر ما وقعت عليه عيناى شبح فتاة واقفة على بعد تنظر إلى المسافر دون أن تجرؤ فتقترب أو تودع .. كيف ؟ أنها تنظر إلى العلياء ..

ولكننى صرت سعيدا جدا حين رأيتها وأحسست براحة ورضا لأننى تركتها « كما هى » كما قد خلقها الله ، وعلى الصورة التى يتخيلها عليها رجل من طبقتها ، فتضاعفت سعادتى حين شعرت أننى لم أشوه خيال هذا الإنسان .

وألهتنى العاصمة بضوضائها . وتوزعت أوقاتى وتعددت غاياتى فلم أعد أذكر عزيزة إلا إذا صادفتنى فى شوارع العاصمة قروية حسناء لكن خواطر عنيفة دقت على باب قلبى حين اقتربت إجازة الشتاء ، تلك التى تمنحها المدارس فى منتصف كل عام . فعزمت على أن أسافر إلى القرية .

وجعلنا نلتقى كل يوم طوال أسبوع الإجازة وكان ألذ ما فى لقائنا أنها تستثير حديثى . لم تكن محدثة لا بطبعها ولا بحكم نشأتها فوق ذلك لكن الذى يعجب محدثها منها هو حسن استماعها . كنت أرى انطباعات

ما أقول على صفحة وجهها وفى صفاء عينيها وكانت كثيرة السؤال كأنها تجاهد لتتخلص من جهلها بالأشياء . وراعتنى نفسها الطيبة الطيعة المتطلعة لمعرفة كل ما حولها حتى تصورتها طالبة فى المدرسة السنية تغدو مع كل صبح إلى فصول الدراسة وقد شدت خصرها بنطاق على فستان من الصوف فى الشتاء وثوب من الحرير فى الصيف وحقيبة الكتب مرتاحة بين الخصر والذراع . تصورتها كذلك فخيل إلى أن ترتيبها الأولى بين تلميذات فصلها فأغرقت فى ضحك ارتبكت له وجعلت تسألنى عن سره حتى كشفت لها الموضوع فأغرقتنى بطوفان من أسئلة جديدة .

وأقنعتنى جلساتنا المتوالية أن هذه الفتاة تثق فى كل ما أعمل . منحتنى الثقة التى تمنحها لدليلك أو طبيبك أو محاميك حتى شعرت أن كل ما لا أناله منها فإنما أدخره لنفسى . وتقلص إحساسانا بكل شىء حتى اقتصر على نفسينا فحسب فلم نعد نشعر بالناس ولا بعيونهم التى تنوشنا ونحن فى الخلوات وظللنا كذلك حتى كانت الليلة الأخيرة .

كانت هادئة كطبعها لا يبدو على ملامحها هاجس ولا وسواس . وكانت برودة الجو لا تسمح لنا أن نلتقى فى الحقول مدة طويلة . وقد كان هذا هو اعتراضها حين رغبت فى أن ألقاها فى مساء الليلة الأخيرة ثم قالت لى بعد اقتراحى :

ـــ هل هذا ضرورى .. إننا نرى بعضنا كثيرا فهل ضرورى ؟!

لكن علامات طاعة واستسلام كانت تلون اعتراضها . فلما حملقت فيها ساكتا استطردت بسرعة وهى تبلع ريقها :

ـــ انت زعلان ؟ طيب .. زى ما انت عاوز !

ثم امتزجت فى نظراتها ألوان من الحب والرضا والحنان .

وفى دار امرأة عجوز على حدود القرية التقيت أنا وعزيزة عند هذه التى تعيش وحدها وتأكل خبزها من بيع القصب والبطاطس فى الشتاء ، والبلح والجوافة فى الصيف .

وكانت تجمع بين الرءوس فى الحلال أحيانا كثيرة وتجمع بين العاشقين أحيانا قليلة . ولم يكن عندها قصب فى هذه الليلة إلا لنا وحدنا . دقت بابها بعد قليل يد فتاة جاءت تشترى قصبا وجمعت بيننا مصادفة نعرف سرها نحن الثلاثة . فانظر كيف يتفق الناس على إلغاء الحقائق !. لماذا يلذ لنا أن نأتى بعض أعمالنا ونحن متغافلون عن حقيقتها ؟!

وأصرت على أن تعمل شايا لضيفها العزيز « ابن الناس الطيبين » سلالة « الأسياد » لكن حظها العاثر جعل الحُق خاليا من السكر فاقترحت عزيزة أن تخرج هى لتشترى لكن صاحبة الدار سدت علينا الطريق : إنها تشترى تحت الحساب من البدال فلن تُجد إذن نيابتها عنها .

وخلا المكان . وكان هناك مصباح من فئة خمس شمعات معلق على الحائط يرمى بنوره فى تهالك وتنفذ أشعته من خلال زجاجة مسحت من حول الذبالة وترك الباقى مهببا . ورأيت عزيزة تحت نوره تنكمش فى خوف لأن الأفعال التى سبقت خلوتنا كانت تبعث الرهبة حتى أحسستها أنا نفسى . كانت كتجهيز غرفة العمليات موحية ثقيلة . وانكمشت الفتاة لأننا لم نكن فى الفضاء بل فى مكان محدود بالجدران ولما اقتربت منها وحملقت فى وجهها خيل إلى أنها أنكرتنى فأجهشت بالبكاء ، ولأول مرة تبكى قروية بين يدى . وتلاقى فى جسدى تياران أحدهما حار والآخر

مثلوج واختلطا فترة من الوقت أتاحت لها أن ترانى من خلال دموعها. وطفت على وجهها الطيبة التى سترها عنى قناع الخوف برهة قصيرة لكننى ظللت ساكنا واجما كأننى أهنت ، فرأيت ابتسامة على شفتيها وبقية الدموع لا تزال فى مآقيها فخيل إلى أنى أرى ربيعا ماطرا . وأعطتنى شفتيها لتصلح حالى فرفضت عطاءها فى عناد لكنها هتفت بى :

ـــ لعلها فى طريقها إلينا .. لا يجب أن ترانا فى وضع غير عادى .

فامتثلت !

وأعدانى حنانها فاكتسبت حنانا حتى زدت عليها . ثم أعداها حنانى فاكتسبت حنانا زادت فيه فأعدتنى به .. وبقينا كذلك أعديها وتعدينى .. حتى أفقنا آخر الشوط ..

ثم دقت على الباب الخارجى يد عرفنا أنها تحمل السكر فقامت عزيزة لتفتح . ودخلت الطارقة وخرجت عزيزة من نفس الفتحة .

وعند ارتفاع الضحا كانت على مقربة من المحطة تنظر إلى القطار واسترجعت صورتها بعد أن فصل بينى وبينها عدة كيلومترات فلم أشعر بالرضا الذى أحسسته عند السفرة الأولى . كانت ناقصة شيئا ، وكان مهما .. لكنها بدت فى ناظرى مثل التى كفكفت دمع حزنها على عزيز عند مدخل الليل ثم ابتسمت لترضى زوجها ، لأن المفقود شىء لا يخصه .

وأخذت الحوادث تبعد عن خاطرى قليلا قليلا كما يتلاشى آخر اللحن حتى كدت أنساها لولا أن الأيام عادت فذكرتنى بها عند عودتى فى إجازة الصيف .

وكان اللقاء ميسورا والجو فى نفسنا وفى الخارج لا يعوق عن شىء .

وبدأت أراها بعد العلاقة الجديدة فى صورة جديدة . فى صورة ضرورة إن لم تكن ضخمة فإنها محسوسة . وتعاونت طيبتها ورضاها بالواقع البغيض مع العلاقة الجديدة حتى شعرت كأننى زدت جارحة من الجوارح . صدقنى أننى كنت أحس بها إحساسا بدنيا متصلا كأن فى يدى ست أصابع بدلا من خمس . وقد لا يروق الناس أن يروا أصبعى السادسة ، ولكن قطعها يؤلمنى ! وكانت الأصبع نفسها تحس أنها فضلة !

ثم تحرجت الأمور بالنسبة إليها فى الخريف التالى بعد أن تركتها وعدت إلى القاهرة ودخلت كلية الطب .

دخلت القرية ذات مساء وكنت راجعا لزيارة قصيرة فما لبثت أن خرجت للقاء بعض الأصدقاء وتسقط الأخبار . ممنيا نفسى بأننى ربما أراها ، لكننى فوجئت بأنها رحلت عن القرية .

كانت فى أوائل الخريف تسير فى الطرقات وبين الحقول منحنية إلى الأمام مدعية أنها تعانى فى ظهرها ألما . ثم غابت فى زيارة لإحدى خالاتها فى قرية أخرى ثم عادت ضاوية صفراء منهوكة حتى رأيت وجهها بعين خيالى و لم يبق فيه جميل إلا العينان . والخال المطل على ملامحها من القمة . لكن أبويها ضجرا بحاضرها ومستقبلها ففوضا إليها تدبير أمر نفسها ثم قالا إنها غائبة عند خالتها مرة أخرى .

وعدت إلى العاصمة وأنا مثقل بهمها وتمنيت بينى وبين نفسى لو أنها

كانت شرسة فلامتنى أو حملتنى يوما وزر ما آلت إليه . وضخم شعورى هذا مأساتها معى فوددت لو أنها قابلتنى . لكنى سألت نفسى عما عساها أن تفعل معها لو أننا التقينا . فإذا بالمسألة لا تعدو أن تكون لونا من الحب .. حب الاستطلاع !! كما تنظر فى بئر لتعرف عمقها ثم تتراجع إلى الوراء وأنت تقول : يا ساتر !



ولعل إحساسنا بمآسي الناس راجع إلى قدر الضرر الذى يلحقنا من هذه المآسى . ذلك هو القياس الحقيقى فى نظرنا إلى البلايا . فلو أن عزيزة طرقت على باب مسكنى فى القاهرة بعد الذى أصابها منى وقالت لى بدموعها أو وعيدها :

— دبر أمرى فأنت السبب .

لأحسست البلبلة فى وزنها الحقيقى ، ولألفيتها ثقيلة الحمل . لكن هيامها على وجهها وتحملها المسئولية وحدها جعلنى أنسى مع مرور الزمن . حتى الأماكن التى شهدت هوانا بلونيه صرت أنظر إليها بمبالاة غير كثيرة !! ولما ماتت العجوز التى جمعت بيننا رأيت كأن جدارا عظيما من الذكرى قد هوى إلى الأرض فشعرت بكثير من الراحة .

ومرت الأيام فأصبحت طبيبا من أطباء الامتياز ، وساقتنى حاجة العمل والدراسة إلى قسم الولادة فى المستشفى .

رأيت على أحد الأسرة سيدة فى دور الشباب تحتضن طفلة فى يومها الثانى وكانت جالسة فى سريرها على مقربة من الوسائد ووجهها إلى الشباك ورجلاها ممدودتان تحت الملاءة البيضاء وكان بصرها سارحا فى الفضاء كأنها تبحث عن شىء . لم أكن أعرفها لكن ملامحها ليست غريبة .. مدنية جميلة إذا أدخلنا فى حسابنا دمها الذى نزفته أثناء الولادة والتعب الذى لقيته من عسرها . يقول وجهها للناظر : إنه كان فيما مضى مستديرا لأن عظام الخدين ظاهرة نوعا .. لم تكن تشعر بوجودى لكن وقع خطواتى وصوت الممرضة نبهاها فنظرت إلينا .. عرفتنى على الرغم من نمو جسمى وعرفتها على الرغم من نحولها .. كان الخال ظاهرا نوعا لأنها

احتجبت عن الشمس وكان كما هو يطل على ملامح وجهها من القمة .. ولم تغب عني نظراتها الطيبة ولا التسامح بل خيل إلىّ بعد الثوانى الأولى من التقاء الأعين أن الطاعة والاستسلام القديمين بدآ ينبعان من أعماق عينيها .. لم يكن هناك حقد ولا بغضاء لأنها كانت تحبنى .. كانت تحبنى ولو أننى لم أعطها شيئا ، إلا الأذى لكن فى الوجود أشياء نعطيها أكثر مما نأخذ منها ، وأشياء نأخذ منها أكثر مما نعطيها . وقضية الهوى والقمار إن تعادل فيها الطرفان فقدت حرارتها فلم تعد موجودة .

قلنا فى نفس واحد يا سلام !!

ثم بدأت المفاجأة تفتر وأخذ الموقف يدنو قليلا قليلا من الأوضاع العادية فملك كل منا زمام نفسه .. وأسرنى شوق شديد إلى معرفة القصة فقد كانت أشبه بهارب من الأسر أو ناج من الغرق لا يخلو أمره من قصة طريفة .

* * *

لم يعد أبواها يطيقانها بعد أن رجعت من زيارة خالتها صفراء ناحلة منهوكة ، ولم تعد هى تطيق أبويها ولا نظرات الناس . وقال له والدها ذات مساء والشرر يقدح من عينيه :

— إذا كنت عاجزا أن أنتقم منه فلست عاجزا أن أنتقم منك ..

ثم قلب كفيه وهز رأسه واستدرك :

— لكن .. وما ذنبه هو ؟ .. ألم يكن هناك اتفاق .. أنت الطرف المهم !!

ثم ترك الحجرة برهة ظنت فيها عزيزة أنه سيعود وفى يده فأس

أو مدية أو أى شيء . لكن الأب دخل عليها فى هدوء نسبى وقال :

— أسلم سبيل هو أن ترحلى .. ارحلى عنا .. وأنا متأكد أن الطرق كلها سيسدها الله فى وجهك حتى تقتلى نفسك .. ارحلى غدا !.

وخرجت فى عتمة الفجر وركبت أول قطار أقلها إلى المنصورة حيث عملت خادما فى بيت هادئ فيه زوجان لم يكتب لهما أن يعقبا نسلا يخطوان إلى الشيخوخة الأخيرة .. فلما انضافت أنفاسهما الهادئة وحياتهما الرتيبة إلى الذكريات الكئيبة التى رحلت بها من القرية ، ألقى كل ذلك فى قلبها تحفظا وانكماشا وهدوءا . ولم يكد العام يمضى حتى اتسعت لها الحياة وألفت الزوجين الطيبين فتقدمت صحتها .. وبدا الخال يزهو على خدها كأنها إحدى بنات المنصورة .

لكن رتابة العيش لن تدوم لإنسان فقد حدث أن جاءت شقيقة السيدة لتزور أختها فلما رأت عزيزة فى ذلك البيت المحدود المطالب قالت الضيفة لربة الدار :

— تمام ...

— تمام إيه يا أختى ؟!

— « تمام زى تقسيم الأرزاق » المكان الأصلى لعزيزة عندى أنا لأن العمل كثير .. ثم همست لأختها بما هيج غيرتها من شبابها الناضر .

لكن بقى أن تستشار فى الأمر صاحبة الأمر نفسه ولوحت الضيفة لها بجمال القاهرة وما قد تلقاه هناك من « عدل » وسيطرت على الخادمة موجة من الحياء والتردد لكن تدخل سيدها بما يوحى بالرفض جعل سيدتها تعلن الرضا فأثار هذا فى نفس الفتاة نخوة وعزة ، أو عنادا ..

فانتهى الموضوع .

وكان البيت الجديد ضخما كبيرا .. « بيت من بابه » تسكنه أسرة أطلق رباها لنفسهما العنان فى الإنتاج ، على طريقة الطبقة الدنيا والمتوسطة فى الأسرة المصرية .. فلما رأت الخادم مآلها هذا فطنت إلى أنها وقعت فى أحبولة .. وكانت تضيق بهذا المآل لولا أن تدخل الإيمان بالنصيب .. ثم أمر آخر .. هو تلك الوجوه الفتية الحلوة ذات الشعر المرجل والثنايا الباسمة .. عادل وحمدى . أكبر الأبناء ، الطلاب فى المدارس الثانوية .. أليس فى مراقبة هذه الوجوه فحسب راحة من تعب وهدوء من نصب آخر كل نهار .. خصوصا حمدى .. إن فيه معانى كثيرة من حبيبها القديم !!

وبدأ العمل يرهقها ولكن قلبها كان فى نشوة .. كانت تحلم دائما به ولو أنها لا تطمع فى شىء من أحد .. إنها منحت رجلا كل ما تملكه وتركته يرحل بالغنيمة دون أن تقول كلمة .. غير أن الأمور بدأت تحث خطاها فى الطريق الذى تخيلته فحمدى دائما يتودد إليها ، يلج عليها المطبخ ويلاحقها إلى السطح حين تصعد لترعى الدجاج .. ولحظت الأم هذا ببساطة فاحتاطت ما وسعتها الحيطة .. لكن تمدد الأجسام لا يقاوم كما يقول علماء الطبيعة فقد استطاع العاشقان أن يحققا هواهما بأساليب سهلة فى بيت به بدروم وسطوح .. ولا تنس أن أحد الطرفين ساذج محروم وأن الطرف الآخر مر بتجربة قاسية فلم يعد يخشى التجارب ..

وحصل حمدى على التوجيهية وأعلن لأسرته بكل ما فيه من قوة وإصرار وعناد أنه لن يكمل الدراسة وأنه يرغب فى وظيفة كتابية .

وشمت عادل الهادئ الوديع الذى كان يرقب هواهما كما يرقب المحروم ألوان المائدة .. وعلق وهو يتحسس شعر رأسه رأى أخيه قائلا :

ـــ برضه أحسن !

فنظر إليه حمدى نظرة ذات مدلول بعثت إليه بالخجل فأعلن حياده الكامل .

وسافر الموظف إلى أسيوط وعاش وحده للمرة الأولى فى تاريخ حياته وبدأت خطاباته بعد أشهر ثلاثة تفيض بالشكوى من عدم النظام وسوء الطعام لكن الحيلة كانت ساذجة دعت الأبوين إلى الإغراق فى الضحك ثم أخذت الخادم تبدى تبرما وضجرا بكثرة الأعمال لم يكونا يقابلان من ربى البيت إلا بالصفح والإغضاء .. واستبد الشوق بالفتاة ذات يوم فأقدمت على عمل جرىء . كتبت خطابا بيد (المكوجى) إلى حمدى تقول له :

ـــ أنا فى غاية التعب والشوق .. فهل تتحمل مسئولية حضورى عندك ؟!

وبعد أن ألقت بالرسالة فى صندوق البريد وقفت ساهمة مهمومة ولامت نفسها على تهورها وترقبت فضيحة !

ماذا يكون الأمر إن أذاع حمدى على أبويه هذا السر .. هناك منفذ آخر هو أن تقول إنها دسيسة ثم تتهم « المكوجى » . وراعها ذات مساء أن جاءت إليها رسالة من أسيوط باسم هذا الوسيط وكان سيدها يقول لها فيها .. احضرى !!

كانت واثقة أنها على باب مشكل ولكنها حادت عن التفكير فيه ..

« تسافر وبس » .

إن الإهمال إذا سيطر على حياتنا فى فترة باكرة فأصابها بالأذى فإنه لا يلبث أن يصير قانونا لحياتنا .. وقد أهملت عزيزة مرتين فلماذا لا تهمل ؟!

والتقى الخليلان فى أسيوط !!

وشك الأبوان فى القاهرة وتوقع الحبيبان أنهما سيفاجآن بزيارة أحد ، فكتب حمدى إلى أبيه يستدعيه ليزوره فى الصعيد !! ورجع البريد بخطاب يقول : إن الوقت غير مناسب فلندع هذا إلى فرصة قريبة .. فعن للحبيبين بعد هذا أن يتدبرا الموضوع حتى لا يقعا فى أحبولة .

وغابت عزيزة عن البيت لمدة خمسة عشر يوما قام فيها الوالد بزيارة ابنه فألفى البيت معفرا غير منتظم وملاءة السرير تدل على حياة العزوبة .. وبعد إقامة قصيرة عاد إلى القاهرة .. فخرجت عزيزة من المستشفى الأميرى لأنها كانت تشكو مرضا باطنيا حاول الأطباء فهمه فلم يعرفوه .

***

قالت عزيزة وهى تنظر إلى نظرة ذات مغزى :

— ثم تزوجنا بعد سنة .. وكانت حياتنا قبل زواجنا جميلة كذلك لولا أن معنى واحدا كان ينغصها علينا وقد كنا نبحثه كل ليلة ولكن بعيوننا .. وفى صمت ..

وأخيرا تدخل بيننا مخلوق ثالث فقلت لحمدى : أنا مطيعة .. لن أعتبرها فرصة .. ولو أموت .. فإذا به يلطمنى على وجهى ويقول : كفى إجراما .. إننا مجرمان .. لماذا لا نشهد الله على هذه العلاقة ؟!

فحملقت فيه و لم أنبس ببنت شفة .. لكنه كان كطبعه يعنى دائما ما يقول .

قلت فى نفسى بعد أن أكملت قصتها :إن الألفة تصنع المعجزات .. ويختلف الرزقان والفعل واحد !

أما الأم فقد ختمت حديثها معى بقولها الهادئ وهى فى مكانها من السرير :

— وإذا كنا ننسى قصص أنفسنا ، فمن الأولى أن ينسى قصصنا الناس ..

فخجلت ثم سألت نفسى : لماذ لم أحترمها ؟

وهل أحترمها الآن لأنها نجت وتزوجت ؟! إننا بناء « مونته » من الخسة .

ثم قلت وأنا أهم بالانصراف وأشد على يدها بحرارة وتهنئة :

— ومتى نقلتم إلى القاهرة .

— فى الحركة الأخيرة .

فانصرفت وأنا أحس وقع نظراتها على ظهرى !!

★ ★ ★

البشرية المظلومة

لست أنسى هذه السيدة ما حييت ..

إنى لأشعر نحوها بالأسى وأتمنى لو استطعت أن أسوى الخلاف بينها وبين الناس ، لكن .. كيف أطيق ؟ وهى طراز من الناس أشبه بالفلتات التى تند عن آلة النسيج أو آلة الخياطة .. إذ تمشى الواحدة منها فى عملها مشيا طبيعيا سريعا بارع الاتساق ثم يحدث لها فجأة ولأمر من الأمور لا يدرى كنهه ، أن يضطرب سيرها فيضطرب ما تصنع فى لمحة واحدة .. أشبه بطرفة العين .. ثم يعود كل شيء إلى ما كان عليه . لكن .. بعد أن تترك الآلة فى الثوب عيبا من العيوب . وهكذا كانت هذه السيدة بين غيرها من عباد الله !

*** *** ***

كان يبدو على وجهها أنها خائفة .. وكان ذلك دائما .. وكانت مشكلتها تتفاقم فى كثير من الأحيان إلى حد أنها خافت من خوفها نفسه !

والفزع كثيرا ما يخلق الفزع .. يتوالد بعضه من بعض كما تتكاثر « بكتريا » الخميرة .. حتى أصبحت هذه السيدة تخاف من كل الناس .

كنت صديق زوجها.. فكانت تخاف منى .

وزوجتى صديقة لها .. لكنها تخاف منها .

وإذا رأت خادمتى تكلم خادمتها ظنت بهما أضخم الظنون فخافت سوء ما تدبران .. وربما خافت على زوجها من خادمتها .

وربما خافت على خادمتها من زوجتي !..

لكنني على الرغم من كل هذا كنت أتردد على منزلهم لأنه لا مناص من ذلك .

كان الدكتور إبراهيم زميلي فى الدراسة ، وكان كل منا يحمل لصاحبه ذكريات كلها حب ومرح ، وفيها كثير من « المسكنات » التى « نتعاطاها » بالحديث عن الماضى كلما جابهنا الحاضر بوجه يابس أو واقع مر .

على أن مركز « أبو حمص » كان صاحب فضل كبير فى الإبقاء على العلاقات بين الناس حتى ولو كانت ضعيفة لأن البلدة كانت بالنسبة للذين ألفوا حياة المدن أشبه بالمنفى البعيد ، خصوصا فى ليالى الشتاء حين ينزل الليل أستاره فى وقت أكثر بكورا ويتشبع جو الوجه البحرى برطوبة كثيرة وتعمر سماء المنطقة بالسحاب الدامع . ثم تبدو تلك البلدة تحت جنح الظلام فى هيئة تنم عن الفقر فى كل المرافق .

عدة أبنية متباينة الطول والقصر والذوق والهندسة متماسكة على الطريق العام الموازى لترعة المحمودية ، كأنها خائفة أن تتزحلق من انحداره ومن كثرة أوحاله التى انطبعت عليها صور مختلفة لإطارات السيارات وعجلات عربات النقل وحوافر الدواب وأقدام الناس .

ثم مقهى بلدى تسهر فيه طائفة معينة من الناس لوقت غير طويل ، يديره رجل من أبناء البلدة إدارة بدائية صرفا لا تحبب فيه طبقة الموظفين .

ولم يكن من الميسور لنا أن نسهر كل ليلة فى الإسكندرية وإذا كان ميسورا من نواح كثيرة فإنه عسر صعب إذا قسناه بمقياس النقود .

من أجل ذلك كله لم أستطع أن أتبين قدر سرورى حين فوجئت بالدكتور إبراهيم يوم التقينا وجها لوجه فى الشارع الرئيسى من البلدة .. وتعانقنا كما كنا نتعانق فى القاهرة إذا فرقت بيننا الظروف مدة أطول من المألوف .. ثم تصافحنا ، ثم هزتنا المفاجأة مرة أخرى وكل يقول لصديقه :

ـــ والله سلامات .

ثم عدنا فتعانقنا ، حتى خفت عنا حرارة الموقف فتواعدنا على اللقاء فى بيتنا فى نفس المساء .

* * *

وزففت إلى زوجتى البشرى بأن أصدقاء جددا لاحوا على الأفق فشهقت فى فرح واشتياق لأن تعرف الموضوع .. قلت لها :

ـــ لعلك تذكرين صديقا لى .. اسمه الدكتور إبراهيم .. الطبيب البيطرى .. زميل شبابى وعهد الدراسة .. ابن حارتنا وموضع أسرارى وخصوصياتى .

فأغرقت فى الضحك لأنها ذكرت قصة حدثتها بها فى الاعترافات التى كثيرا ما يتورط فيها الأزواج فى ساعات الضعف .. ثم قالت قبل أن تفرغ من ضحكتها :

ـــ يا خاين .. ذكرته .. أهو ذلك الشاب الطيب الذى عرفك بإحدى صديقاته فخطفتها منه ، فقاطعها هو ليصفو لك الجو .. هو هو ؟ .. ذكرته ..

ثم نظرت بخبث !

لكن ذلك لا يعنى إلا أننا فرحنا بلقائه .. وكان فرحى أنا وحدى يوازن فرح المجموع .

وأمسى المساء فتهيأت شقتى الهادئة فى أحد أطراف البلدة لاستقبال الضيوف .. وكان عشاء غير عادى حرصت زوجتى فى طهيه على أن تقول لضيفتها بلا الفاظ : « انظرى .. كيف أننى سيدة بيت ؟ » وأحضرنا من الإسكندرية فواكه وأزهارا وتلألأت الشقة بأضواء « الكلوبات » كأنها تهيأت لعرس .

ورأيت زوجة الدكتور للمرة الأولى فخيل إلى أنها مذعورة !

أجل .. خيل إلى ذلك ، لكنه لم يعننى فى شىء .

وعزوت الأمر فى أوله إلى أشياء لكن الحقيقة لم تكن ضمن هذه الأشياء .

واستقللت أنا وزوجها بالحديث وجعلنا نفيض فى الذكريات والسيدتان تستمعان وأخذت زوجتى تشارك فى حيطة وبشاشة أما زوجة صديقى فلم تشارك بشىء .. كانت تبتسم أو تقطب أو تلقى بأمر إلى بنتها الصغيرة وكثيرا ما كان يغلب على أمرها الصرامة .. ثم تتلفت كما يتلفت الطفل الغريب .

وفى الأسبوع التالى رددنا الزيارة إلى الدكتور .. وكان الطابع الرسمى غالبا على زيارتنا فقد كانت دعوة إلى العشاء ..وبذلت زوجة صديقى جهدا غير عادى لتنال قصب السبق فى التدبير المنزلى لكن الواقع لم يكن فى صفها .

ثم استقرت بنا الحال فى المركز الجديد .. كنت أسهر مع صديقى كل

ليلة فيتناول حديثنا مشاكلنا كلها .. وكان عمله قليل المشاكل على عكس عملي الكثير المرهق فأنا معاون إدارة وهو طبيب بيطرى .

وكأنما شاءت الأقدار أن تقسم بيننا الأمور فمنحتني عملا مرهقا وبيتا هادئا سعيدا أحس وأنا أعبر عتبة بابه أنني تركت متاعبى كلها على السلم .. أما الدكتور فقد منح عملا مريحا وبيتا متعبا فهو يحس كل يوم وهو يغادر مكتبه إلى البيت أنه فى هذه اللحظة فحسب ، ذاهب إلى العمل !

* * *

قالت لى زوجتى ذات مساء ونحن نتهيأ للرقاد ونثرثر قبل النوم كعادتنا بمختلف الأمور :

ـــ ما رأيك فى زوجة صديقك الدكتور ؟

قلت وقد عجبت من سؤالها شيئا ما :

ـــ مالها ؟!. كويسة !

فضحكت ضحكة تدل على خيبة أملها فى فراستى واستطردت قائلة :

ـــ إما أنك فاهم وتحاول الفرار من الجواب وإما أنك على الرغم من كثرة النفوس التى تطلع على مشاكلها كل صباح عاجز عن أن تفهم طبيعة هذه السيدة .

فأجبتها وأنا أتمطى لأشعرها بتفاهة الموضوع :

ـــ طيب يا ستى .. قولى أنت .

فسألت :

— ألم يشك لك زوجها من شيء ؟ يخيل إلى أنها لا تسعد رجلا .

— حتى الآن لم يشك إلى .. لكن يبدو لى حقيقة أنه غير سعيد .

فأخذت زوجتى نفسا طويلا قبل أن تقص على ما شهدته عندها عصر يوم من الأيام :

زارتها إحدى جاراتها من سكان البيت الذى استأجر الدكتور شقة منه وكانت الزائرة أرملة فيها كثير من الجمال وخفة الروح غمرت جلستنا بأحاديثها الطلية ونكتها البديعة وقدرتها على محاكاة أى إنسان تسمع صوته مرتين أو ثلاثا ، ولما انصرفت هذه الضيفة جعلت زوجتى تنصت إلى تعليق زوجة الدكتور على طباع جارتها فسمعتها تقول : إنها تخاف جدا من هذا النوع من النساء .. لماذا ؟ لأنهن بمرحهن المتكلف وبهجتهن المصنوعة يدللن عيون الأزواج على عيوب قل أن تراها ما لم يعرضن لهم فى الطريق . وقررت زوجة الطبيب ألا ترحب بجارتها هذه بعد اليوم ولا أن تبادلها الزيارة .

قلت :

— أليس من حق كل امرأة أن تغار على زوجها كما أنه من حق كل رجل أن يغار على امرأته ؟

ثم أردفت فى دعابة :

— لو كنت سعيدا لرزقنى الله بامرأة من هذا النوع .. أعنى أنها ليست مثلك قلما تغار على زوجها .

فأجابت :

— ليست المسألة على الوضع الذى تصورته أنت الآن فإن هذه

السيدة لا تغار ولكنها تخاف من كل امرأة .

— حتى منك ؟ !

— حتى منى .. ولو أن الأمر يختلف .. فهى تخاف من الأرملة أن تفسد عليها زوجها من ناحية معينة وتخاف منى أن أفسد عليها زوجها من ناحية أخرى كأن يقل إعجابه بهندامها أو طهيها أو معاملتها له .. ويخيل إلى أنها تخاف عليه من أصدقائه كذلك لأنها لا تستطيع أن تجد علة للحب إلا أن تكون سببا من أسباب المنفعة .

ولما فرغت زوجتى من هذا الحديث هززت رأسى مؤمنا على الفكرة ثم رجوتها أن تكف لأننى أريد أن أنام لكن عقلى اختزن أقوالها التى أخذت تجوب فى نواحى ذهنى حتى خطفنى النوم .

وبدأت أرى بعد ذلك على وجه صديقى آيات من التعب وعدم الرضا عن الحياة وعزوت ذلك بادىء الأمر إلى الصورة التى عقدتها زوجتى فى نفسى عن حياة صديقى فى بيته . و لم يكن الدكتور إبراهيم ليخفى عنى شيئا و لم يبد لى أن أستوضحه الأمر ببساطة حتى كانت إحدى ليالى الصيف حيث نزلنا بعد العشاء لنمشى فى خلاء الريف . كان الطريق زراعيا غير واسع والليل لا يزال فى هزيعه الأول وكان صديقى يلبس قميصا وبنطلونا فحسب ، عارى الرأس مكشوف الصدر لأنه كان أدنى إلى البدانة و لم يشارك فى الحديث فى هذه الليلة بل كان يبدو عليه الوجوم . وتستطيع أنت أن تتصور وجوم هادئ الطبع . إنه نوع عميق جدا من السكون يكون مطبقا بليغا كأنه سكون الصحراء .

و لم أسأله عن السبب ولو أنه كان يشعل سيجارة من سيجارة و لم أكف

أنا عن الكلام لأننى كنت مستغرقا فى وصف خطوات التحقيق فى إحدى القضايا التى صادفتنى وشغلتنى ولم يزد الدكتور إبراهيم طول مدة اصغائه على أن يقول : « هيه » فلم يضحك إن وجب الضحك ولم يبد أسفه فى مواضع الأسف .

وانتهى الشوط المعهود على طريقنا المألوف وبدأنا نستدير لنعود أدراجنا نحو البلدة فتوقف صديقى قليلا وأشعل عود ثقاب لإحدى لفائفه أتاح لى أن أرى على قسماته آيات اهتمام غير مألوف ثم أخذت أقدامنا تدرج على الطريق فى نفس اللحظة التى تنحنح فيها ليقول :

ـــ خلاص .. خلصت يا سيدى ..

قلت :

ـــ نعم .

قال :

ـــ إذن فاسمعنى بدورك .

قلت وقد فاحت من نبراته روائح القلق :

ـــ تفضل .

فقال :

ـــ أنا غير سعيد يا صديقى .

فهتفت فى أعماق : « قاتلك الله يا زوجتى فقد تنبأت بذلك »

ثم رفعت عقيرتى :

ـــ لماذا .. لا سمح الله يا دكتور ؟

ـــ لأن امرأتى لا تريد إلا شقاق .

قلت :

ــ أرجو ألا تنظر إلى المسألة بالمجهر حتى تراها عادية كما يراها جميع الناس . فهل هذا ممكن ؟

فاعترض :

ــ ألست تعرف هدوئى ؟

ــ أعرف كل شىء .

ــ إذن فلا تتهمنى . واعلم أنه من الطبيعى فى كل فرد أن يحرص على إشاعة إحساساته فى نفوس الآخرين .. والأصدقاء على الخصوص . فهل ستنصت إلى ؟

ــ إنى أرى رجلا غير الذى أعرفه فيك . لكن .. لا بأس .

فقذف ببقية اللفافة إلى ماء الترعة حتى سمعنا « طشتها » مختلطة بنقيق ضفدعة قبل أن يقول :

ــ إن زوجتى لا تحبنى .. لأنها لا تحب الناس ..

وسكت كأنه توقع أن أعلق على ما قال لكننى لم أتكلم ، فاستطرد :

ــ إنها لا تفهم سببا للحب إلا المنفعة فهى لا تريد أن تحب إنسانا لأنها لا ترجو من أحد شيئا . وترفض بإصرار أن يحبها الناس لأنها لا تريد أن تعطى أحدا شيئا . وفى كل المدن التى عشنا فيها والمراكز التى انتقلنا إليها لم تستطع أن تحتفظ بصداقة أحد .. حتى الخدم .

ولما حنت علينا الأقدار والتقينا بكم فى هذا البلد.داعبنى أمل فى أن يتغير الموقف . فرحت زوجتى بالهدوء والاستقلال الذى يرفرف على حياتها فى موطننا الجديد .

لكن سيدة من السيدات شغلت بالها أكثر من المألوف . أرملة تسكن فى الشقة التى تحتنا . حقيقة أنها جميلة محدثة لطيفة .. لكن ما علاقتنا بها . كل العلاقة قائمة فى نفس زوجتى لأنها خائفة منها وكان خوفها هذا سببا فى أننى بدأت أحس بهذه السيدة وبدأت هى تحس بى وكنت أراها وأنا صاعد أو نازل بعد أن التقيت بها عندنا عدة مرات ثم عدت لا أراها عندنا . لكننى كنت أراها كل صباح فى طريقى أو فى أى مكان .

ولأمر ما من الأمور التى كنا نحسها قديما أحسست أنى أحبها وكما تضطرم نار الأفران بالتحريك ، كان حبها يضطرم فى نفسى كلما خاضت زوجتى فى حديثها .

كانت تقيم مع ابنها وهو غلام فى المدرسة الابتدائية ومع خادمة تقوم بحاجاتها وكانت تنفق من ريع أرضها فى المركز نفسه . وكانت تقول لى بعينيها كلما التقينا كلمة واحدة لكنها جديدة وأخذت الأيام تمر والكلمات تزيد حتى ألقت فى نفسى بكل هذه المعانى : هل يحظر الحب على القلوب بعد أن تتجاوز سنا مخصوصة . وهل من الممكن أن تفصل بين مادة القلب ومعنى الحب . تستطيع أن تفعل ذلك إذا قدرت على أن تعزل اللبن من بياض اللبن وتفصل الوردة من حمرة أوراقها . هل من الممكن أن نلتقى ؟ أريد أن أقول لك أشياء كثيرة .

وأنت تعرف طبعى يا صديقى ، أتشرب المعانى ببطء ثم أتركها ببطء فأنا أغضب وقلما أكره وقلما أحب لكن إذا حدث لى شىء من هؤلاء فإنه يكون غاية بين أمثاله .

وصممت على أن ألقاها لكننى لم أوفق فى معرفة السبيل غير أن القدر

تولى ذلك عنى فقد جمعتنا الظروف فى الإسكندرية منذ أسبوع مضى .
سألته :

ـــ وتكاشفتما بالحب ؟

فأجاب :

ـــ هذا هو الذى حدث .

ـــ وما الخطوة التالية أيها الزوج والوالد ؟

ـــ لا تسألنى عما أريد أن أسألك عنه . ولا تغفل طبائع البشرية حتى لا تظلمها .

قلت .

ـــ اهرب .. أهرب بزوجتك وأبنائك .

فقال بحسرة :

ـــ فات الأوان . لن أستطيع !!

* * *

لم أعد أعرف بالتحديد ما الذى كان يخفيه عنى صديقى . لأنه كان يغيب فى الإسكندرية يوما دون أن يصحبه أحد . كنت واثقا أن فى نفسه شيئا لا يريد أن يطلعنى عليه فلم أشأ أن أدخل عليه منطقته المحرمة .

على أن زوجته أجبرته على أن ينتقل إلى سكن جديد واستشرت شكوكها وأخذت تقطع كل علاقة تستطيع أن تقطعها لتفصلها عن الناس كما يعزّل المحاربون بلدا من البلدان .



غير أن القــدر تــولى ذلك عنـــى ،
فقد جمعتنـا الظـروف فى الإسكندريـة

غير أن هذه النقطة الغامضة فى علاقة صديقى بهذه المرأة ما لبثت أن انكشف حين سقطت عليها الأضواء لأن أمر نقله قد صدر فألفى الدكتور إبراهيم نفسه وقد أصبح لزاما عليه أن يرحل عن « أبو حمص » فصارحنى بأنه لابد أن يتزوج . قلت مستغربا :

— منها ؟!

فقال :

— أجل .. منها !

وبدأ بعضنا يودع بعضا وكانت نهاية مؤسية حين ذكرنا اليوم الذى التقينا فيه فجأة فى هذه البلدة منذ ثلاث سنوات ووازنا بينه وبين هذا اليوم . وسافر الدكتور بأسرته القديمة إلى الفيوم وترك أسرته الجديدة حيث هى فترة من الزمن يقصرها عليهم بالزيارات ما استطاع حتى ينقل مرة أخرى إلى بلد قريب .

لكن حوادث هذه الأسرة ما لبثت أن غابت عنا شيئا فشيئا حتى كدنا ننساها . واضطربت بنا البلاد كشأن كل موظف فى الدولة حتى استقر بنا المقام فى القاهرة بعد نقلى إلى ديوان الداخلية .

***

امتدت بنا السهرة فى بيت صديقى عزت وتشعب بنا الحديث شعبا وبدأ أحدنا يتكلم عن الذين يألفون ويؤلفون وعن الذين لا يألفون ولا يؤلفون ، فقال أحد الحاضرين :

— إن محبة الناس استعداد طبيعى يودعه الله قلوب عباده كما يودع بعض الأعين قوة خارقة للإبصار ويسلب بعضها الآخر هذه القوة ،

فرددت أنا قائلا :

ــ هذا صحيح . لأن لى ولدا فى المدرسة الثانوية يستطيع أن يصادق أول تلميذ يلقاه على باب المدرسة ولى ولد آخر فى الجامعة لم أسمعه مرة يذكر اسم صديق و لم يحدث فى عيد من الأعياد أن حمل إليه البريد بطاقة من صديق .

فضحك بعض الحاضرين ومصمص بعضهم بشفتيه وقال أحد المدرسين فى الأزهر وهو يفلت حبات السبحة من بين يديه ويهز رأسه فى حركة من يؤمن على رأى :

ــ « سبحان الله !! لله فى خلقه شئون » .

وهنا دخلت خادم بالقهوة فقطعنا الحديث فترة وجيزة عاد بعدها فاتصل بما أخذ يقصه علينا الشيخ هاشم المدرس بالأزهر حين شرع يقول :

ــ الشىء بالشىء يذكر أيها السادة ، والحديث ذو شجون فاسمعوا هذه القصة التى قد ترون فيها شيئا من الطرافة : فى منزل مجاور لنا يتألف من دور واحد أظنه كان فيما مضى عدة طبقات فلما خاف صاحبه عليه السقوط هدم الأدوار العليا من المنزل وأبقى الطبقة الأرضية وحدها . فى هذه الطبقة ذات الفناء الواسع والحجرات الثلاث تسكن سيدة تقدمت بها السن منعزلة عن الناس لا تألف ولا تؤلف ، حتى نسج حولها سكان الحارة قصصا شتى لا تخلو من مبالغة ولا خيال ، كشأن كل مبهم أو مجهول .

قال بعضهم :

ـــ إنها مجنونة .

وقال آخرون :

ـــ بل إن معها مالا كثيرا دفنته فى الأرض فهى لذلك لا تحب أن تزور ولا تزار ، لم تعقب بنين لكنها نسلت بنتين تزوجتا ونزحتا عن القاهرة . تخدم نفسها بنفسها فى معظم أيام السنة لأن أى خادم أو خادمة لا تستطيع عشرتها أكثر من شهر .

تشترى حاجاتها جملة وبالجملة الكبيرة كأنها تخاف قدوم مجاعة .

عندها زوج من الكلاب تسهر على راحته وراحة نسله وتنفق عليهما فى سعة وقد حرصت على ذرية كلابها الأحياء منها والأموات إلى حد أنها دفنت فى أرض الحوش منها جيلا كاملا .

الكلاب وحدها هى النوع الوحيد من المخلوقات الذى يحظى بحبها ، وإذا خرجت ـــ وقلما تخرج ـــ تبعها كلب ونبح الباقى فى فناء البيت كما يتصايح الأطفال إذا أحسوا فراق أمهم .

قال بعض الناس : ما ضر هذه السيدة الحمقاء لو أنها أنفقت على البشر ما تنفقه على الكلاب . فرددت أنا بالنيابة عنها قائلا :

ـــ لعلها لقيت من الناس ما عناها وكرهها فيهم وهناك نوع من البشر سريع التبرم بالبشر لأنه يريد أن يأخذ أكثر مما يعطى . وكانت هذه السيدة من هذا الطراز . لا تغفر لأحد ذنبا حتى أتى عليها حين من الدهر فألفت بين يديها ذنوبا لا تحصى لأنها لم تحاول أن تنسى لأحد شيئا .

هناك أشياء أيها الإخوان يجب أن نطرحها أولا بأول وإلا أرهقتنا وأعيتنا . تصور مثلا أنك تجمع الشعر الذى تقصه من رأسك وتحشده

فى مكان واحد وانظر أى قدر من الوساخة سيتجمع لديك ، أو تصور أنك لا تغسل المناديل التى تستعملها وانظر أى قدر من القذارة ستنتسب إليك .. هناك أشياء كثيرة يجب أن ننساها أولا بأول وإلا تعقدت حيالنا الأمور . وأغلاط الناس أول هذه الأشياء .

كانت تسير فى الحارة فيهمس بها بعض الجيران : « أم الكلاب » فزاد ذلك نفورها من الناس ومن تعلقها بالكلاب ولجت فى عنادها حتى أصبحت تتعصب ضد البشرية .

وسكت المتحدث قليلا وأجال نظره فى وجوه الجالسين ليرى أثر كلامه فيهم . ثم تربع على الكنبة ثم استند إلى أحد المساند وأقام أحد فخذيه وخلع عمامته وألبسها ركبته ليعيد لفها وعلى شفتيه آثار أسف مما كان يفيض فيه .

أما أنا فقد تذكرت زوجة صديقى الطبيب البيطرى .. تلك التى كانت تكره الناس ولا تغفر لأحد شيئا .

وقال بعض الحاضرين :

ـــ يمكن معذورة ..

فضحك الشيخ هاشم ضحكة فيها توقر وتنم كذلك عن فهم دقيق للأمور ، وعن أن المتحدث أخطأ فى تخمينه ، واستطرد :

ـــ لو كانت معذورة ما حاق بها ما حاق بها . لقد أذلها الله على يدى من اعتزت به .. ها .. ها .. ها .. ها ..!

كانت تجوس خلال بيتها وتقدم الطعام لكلابها العزيزة ففوجئت بأحدها وهو يمسك برجلها و لم يدعها حتى غابت فى لحمها أنيابه .

وتجمع الناس على الحادث ودخل بيتها خلق كثير وكانت تجيل بين الناس وبين الكلاب نظرات حائرة جازعة مذعورة حتى إذا ما نقلت إلى المستشفى ظهر أن كلبها مصاب بالسعار وظهر أنها لا نجاة لها .

وقال بعض من شاهدها :

— إنها نذرت فى أيامها الأخيرة لله نذرا كريما .. نذرت إن شفيت فإنها لن تعود إلى رعاية الكلاب ، كلا ولا تعود إلى رعاية الإنسان . بل إنها ستجرب نوعا جديدا من مخلوقات الله . هأ .. هأ .. هأ .. أتدرون ما هو ؟ إنه الثعابين !

ولكن الله لم يستجب فقد وافتها هناك المنية !!

***

قلت للشيخ بعد إطراق قصير :

— مثل هذه السيدة كانت محتاجة إلى من يسوى الخلاف بينها وبين البشرية . ولكن ... ألا تعرف شيئا عن زوجها يا مولانا ؟

فقال الشيخ وهو يعيد وضع العمامة على رأسه بعناية وإتقان :

— أيوه يا سيدى ... بيقولوا كان طبيب .... بيطرى !!

فهززت رأسى دون أن أنبس ببنت شفة !!

★ ★ ★

فهـــرست

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

رقم الإيداع ٢٥٩٥
الترقيم الدولى : ٣ ــ ٣٥٦ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه